الخبر عن مقتل ابن الأبار وسياقة أوليته

كان هذا الحافظ أبو عبد الله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية، وكان علامة فى الحديث ولسان العرب، وبليغا فى الترسيل والشعر، وكتب عن السيد أبى عبد الله بن حفص بن عبد المؤمن ببلنسية، ثم عن ابنه، ثم دخل معه دار الحرب حين نزع إلى دين النصرانية، ورجع عنه قبل أن يأخذ به، ثم كتب عن ابن مردنيش. ولما زحف الطاغية إلى بلنسية ونازلها، بعث زيان بوفد بلنسية وبيعتهم إلى الأمير أبى زكرياء، وكان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ، فحضر مجلس السلطان وأنشد قصيدته على روىّ السين يستصرخه فبادر السلطان بإغاثتهم، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم، من المال والأقوات والكسا، فوجودهم فى هوة الحصار، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية، ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس، غبطة بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان، ورشحه لكتب علامته فى صدور رسائله ومكتوباته، فكتبها مدة، ثم إنَّ السلطان أراد صرفها لأبى العباس الغسانى، لما كان يُحسن كتابتها بالخط المشرقى، وكان آثر عنده من الخط المغربى؛ فسخط ابن الأبار، أنفة من إيثار غيره عليه، وافتات على السلطان فى وضعها فى كتاب أمر بإنشائه، لقصور الترسيل يومئذ فى الحضرة عليه، وأن يبقى مكان العلامة منه لواضعها فجاهر بالرد، ووضعها استبدادا وأنفة؛ وعوتب على ذلك، فاستشاط غضبًا، ورمى بالقلم، وأنشد متمثلاً:

تطلب العز فى لظى وذر الذ ... لَّ ولو كان فى جنان الخلود

فنمى ذلك إلى السلطان، فأمر بلزومه بيته؛ ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه، عد فيه من عوتب من الكتاب وأعتب، وسماه إعتاب الكتاب، واستشفع فبه بابنه المستنصر بالله، فغفر السلطان له، وأقال عثرته، وأعاده إلى الكتابة.

ولمّا هلك الأمير أبو زكرياء رفعه المستنصر إلى حضور مجلسه، مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس وأهل تونس. وكان فى ابن الأبار أنفة وبأو[1] وضيق خلق، وكان يزرى على المستنصر فى مباحثه، ويستقصر مداركه؛ فخشن له صدره، مع ما كان يسخط به السلطان، من تفضيل الأندلس وولاتها عليه.

وكانت لابن أبى الحسين فيه سعاية، لحقد قديم، سببه أنَّ ابن الأبار لمّا قَدِم فى الأسطول من بلنسية، نزل ببَنْزَرْت، وخاطب ابن أبى الحسين بغرض رسالته، ووصف أباه فى عنوان مكتوبه بالمرحوم؛ ونبه على ذلك فاستضحك، وقال: إن أبًا لا تُعرف حياته من موته لأبٌ خامل؛ ونميت إلى ابن أبى الحسين، فأسرها فى نفسه، ونصب له، إلى أن حمل السلطان على إشخاصه إلى بجاية؛ ثم رضى عنه واستقدمه، ورجعه إلى مكانه من المجلس، وعاد هو إلى مساءة السلطان ينزعاته، إلى أن جرى فى بعض الأيام ذكر مولد الواثق، وساءل عنه السلطان بعض من حضره فاستبهم، فغدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها، فاتهم بتوقع المكروه للدولة والتربص بها، كما كان أعداؤه يُشيعون عنه، بما كان ينظر فى النجوم؛ فَتَقَبَّض عليه، وبعث السلطان إلى داره، رفُفعت إليه كتبه أجمع، وألفى فى أثنائها - فيما زعموا - رقعة بأبيات أولها:

طغا بتونس خلفٌ سموه ظُلمًا خليفهْ

فاستشاط لها السلطان، وأمر بامتحانه ثم بقتله، فقتل قعصًا بالرماح وسط محرم من سنة ثمان وخمسون، يعنى وست مئة. ثم أحرق شلوه، وسيقت مجلدات كتبه، وأوراق سماعه ودواوينه، فأحرقت معه.

انتهى كلام ابن خلدون.

---

(١) البأو: الكبر.

والقصيدة السينية التى أشار إليها ابن خلدون، كنت عزمت على ذكرها أوّل تراجم هذا الكتاب، حين ذكرت أمر الجزيرة، وأتيت بقصيدة صالح ابن شريف، فنسيت ذلك، حتى قضى الله به الآن؛ وهى من غرر القصائد الطنانة، وهذا نصها[1]:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إنَّ السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما نعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرًا ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربةٍ إجحاف نائبة ... تثنى الأمان حذار والسرور أسا
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... ولا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما ... جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العوادى العائثات[2] بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرسا ... ومن كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعا ... وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفى عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارسًا للمثانى أصبحت دُرُسا
وأربعا نمنمت أيدى الربيع لها ... ما شئت من خلع موشية وكسا

(١) نفح الطيب ج٤ ص ٤٥٧.

(٢) فى سائر الأصول: «العابثات»، والمثبت رواية المصنف فى نفح الطيب ولعلها أنسب.

كـانت حـدائق للأحـداق مـونقـةً فصـوح النضر من أدواحها وعـسا
وحال مـا حولها من مـنظر عجب يستجلس الركب أو يسـتركب الجُلسا
سرعان ما عـاث جيش الكفر واحربا عيث الدبا فى مـغانيها التى كـبسا
وابتـــز بزتهـــا مما تحـــيـــفـــهـــا تحيـف الأسد الضـارى لما افتـرسا
فـأين عـيش جنيناه بهـا خـضـرًا وأين غـصـن جنيناه بهـا سـلسـا
مـحـا مـحـاسنهـا طاغٍ أتيح لهـا ما نام عن هضمهـا حينا ولا نعسا
ورج أرجـــاءها لمّـا أجـــاط بهـــا فـغادر الشم من أعـلامـها خنسـا
خـلا له الجـو فامـتـدت يداه إلى إدراك مـا لم تطأ رجلاه مـختلسـا
وأكـثـر الزعم بالتـثـليث منفـردا ولو رأى راية التـوحيـد مـا نبسـا
صل حبلهـا أيها الملى الرحيم فـما أبقى المراس لهـا حبـلا ولا مرسـا
وأحى ما طمست منهـا العداة كما أحييت من دعوة المهـدى ما طمسا
أيام سـرت لنصـر الحق مسـتـبقـا وبت من نور ذاك الهدى مـقتبـسا
وقـمت فيـهـا بأمـر الله منتصـرا كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا
تمحو الذى كتب التجسيم من ظلم والصـبح مـاحـيـة أنواره الغلسـا
وتقـتضى الملك الجـبـار مهـجتـه يوم الوغى جهـرة لا ترقب الخلسا
هذى رسـائلها تـدعوك من كـثبٍ وأنت أفـضل مـرجـــو لمن يئـسـا
فـــتك جـارية بالـنجح راجـيـــةً منك الأميـر الرضا والسيـد الندسا
خاضت خُضارة يُعليهـا ويخفضها عُـبـابه فتـعـانى اللين والشـرسـا

(١) تحرف فى سائر الأصول إلى: «حمى» والصواب من ابن خلدون والنفح.

وربما سبحت والريح عاتية ... كما طلبت بأقصى شدة الفرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبى ... حفص مقبلة من تربه القدسا
ملك تقلدت الأملاك طاعته ... دينًا ودنيا فغشاها الرضا لبسا
من كل غادٍ على يمناه مستلما ... وكل صادٍ إلى نعماه ملتمسا
مؤيد لو رمى نجمها لأثبته ... ولو دعا أفقا لبى وما احتبسا
تالله إنَّ الذى ترجى السعود له ... ما جال فى خلد يوما ولا هجسا
إمارة يحمل المقدار رايتها ... ودوللة عزها يستصحب القعسا
يبدى النهار بها من ضوئه شنبًا ... ويطلع الليل من ظلماته لعسا
ماضى العزيمة والأيام قد نكلت ... طلق المحيا ووجه الدهر قد عبسا
كأنه البدر والعلياء هالته ... تحف من حوله شهب القنا حرسا
تدبيره وَسِع الدنيا وما وسعت ... وعرف معروفه واسى الورى وأسا
قامت على العدل والإحسان دولته ... وأنشرت من وجود الجود ما رمسا
مباركٍ هديه بادٍ سكينته ... ما قام إلاّ إلى حسنى ولا جلسا
قد نور الله بالتقوى بصيرته ... فما يبالى طروق الخطب ملتبسا
برى العصاة وراش الطائعين فقل ... فى الليث مفترسا والغيث مرتجسا
ولم يغادر على سهل ولا جبل ... حيا لقاحًا إذا وفيته بخسا
فرب أصيد لا تلفِى به صيدًا ... ورب أشوس لا تَلْقَى له شوسا
إلى الملائك ينمى والملوك معًا ... فى نبعة أثمرت للمجد ما غرسا
من ساطع النور صاغ الله جوهره ... وصان صيغته أن تقرب الدنسا
له الثرى ولثريا خطتان فلا ... أعز من خطتيه ما سما ورسا
حسب الذى باع فى الأخطار يركبها ... إليه محياه أن البيع ما وكسا

إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته عصاه محتزما بالعدل محترسا
فظل يوطن من أرجائها حرما وبات يوقد من أضوائها قبسا
بشرى لعبد إلى الباب الكريم حدا آماله ومن العَدّ[1] المعين حسا
كأنما يمتطى واليمين يصحبه من البحار طريقا نحوه يبسا
فاستقبل السعد وضاحا أسرته من صفحة فاض منها النور وانعكسا
وقبل الجود طفاحا غواربه من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
يا أيها الملك المنصور أنت لها علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك من يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم نغسل النجسا

تنبيه: «نغسل النجسا» هكذا ثبت بالنون كما رأيته فى بعض النسخ العتيقة، وهو أصوب مما وقع بخط بعضهم بالتاء لأن مثله لا يصلح للمخاطبات السلطانية، ولم يشتهر عند أكثر الناس إلاّ بالتاء، والصواب ما قدمته من أنه بالنون والله اعلم.

وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطئ رأسا كل من رأسا
وانصر عبيدًا بأقصى شرقها شرقت عيونهم أدمعا تهمى ركًا وخسا
هم شيعة الأمر وهى الدار قد نهكت داء وما لم تباشر حسمه انتكسا
فاملأ هنيئا لك التأييد ساحتها جُردًا سلاهب أو خطية دُعسا
واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادى قد أنى وعسى

انتهت القصيدة.

(١) تحرف فى سائر الأصول إلى: «العذب» وصوابه من نفح الطيب. والعدّ: البئر الغزيرة الماء.

وذكر غير واحد أنَّه دخل مرة على المستنصر بالله الحفصى فلما مثل بين يديه آنسه بإقباله وسؤاله، فأنشده الحافظ رحمه الله:

بُشْرَاى باشرت الهدى والنورا بلقائِىَ المستنصر المنصورا

فإذا أمير المؤمنين لقيته لم ألق إلاّ نضرة وسرورا

[ومن شعره رحمه الله:

رجوت الله فى اللأواء لما بلوت الناس من ساه ولاه

فمن يك سائلا عنى فإنى غنيت بالافتقار إلى إلهى][1]

***

ومن بديع نثره رحمه الله رسالته الحافلة، التى كتب بها للمستنصر، وهى الرسالة الغريبة مساقا، المتلألئة نظما واتساقا، التى لم ينسج على منوالها، ولم يأت أحد بمثالها، يصف وصول الماء إلى تونس، ويشير فى ذلك إلى إشارات عجيبة، تدل على أنَّ قريحته الوقادة لداعى الإجابة مجيبة وهى:

الحمد لله حمدا لا نقلله. هذا الزمان الذى كنا نؤمله «بلدة طيبة ورب غفور» ودولة مباركة لمحاسنها سفور.

إلى أبى حفص مالوا[2]، فهل جالت النجوم حيث جالوا، أو نالت الملوك بعض ما نالوا، مُلْك يشتمل الإقبال، وعز يقلقل الأجيال، وكرم صريح الانتماء، فى النماء، وشرف سمت ذوائبه على السماء، إلى عدل وإحسان، هما قوام نوع الإنسان، مع رفق وإسجاح، ضمنا كل فوز ونجاح،

(١) ما بين الحصرتين ساقط من سائر الأصول وهو فى نسخة الرباط رقم ٧٨٤.

(٢) تحرف فى المطبوع إلى: «آلُو».

فقد آضت الظلماء أنوارا، وفاضت البركات أنجادا وأغوارا، أليس العام ربيعا، والعالم جميعا، والسعود طالعة، والعصور طائعة مصالح الأعمال تحليها، وعلى منصات الكمال تجليها، فمن ذا أيّها المولى يجاريك إلى مدى، أو يباريك فى إقدام صادق وندى، وآياتك للأبصار هدى، وحياتك للكفار ردى، بسيرتك عدل الدهر وما جار، ولولا نور غرتك ما أنار:

لقد حسنت بك الأوقات حتى كأنك فى فم الزمن ابتسام[1]

أعرقت فى المجد والعليا، وعنيت بالدين فعنت لك الدنيا، أى عنيد أو عميد ما ألقى باليد، واتقى فى اليوم عاقبة الغد، إصفاقا على التعوض بصفحك وإسعادك، وإشفاقا من التعرض لصفاحك وصعادك، تعمر بالحسنات آناءك، وتتبع فى القربات آباءك، بانيا كما بنوا، بل زائدا على ما أتوا، وباديا من حيث انتهوا:

أناس من التوحيد صيغت نفوسهم فزرهم تر التوحيد شخصا مركبا

ومن ساكبات المزن فيض أكفهم فَرِدْهم ترد[2] ماء الغمام وأعذبا

أمجاد أجواد، فى الحباء بحار وفى الحبا أطواد، تَقَيَّلَ أبو زكريا نهج أبى محمّد، وأُيِّدا جميعا بأبى حفص المؤيد:

نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا

أولئك صفوة الأئمة، وحفظة الأذمة، والقائمون دون الأمة، فى الحوادث المدلهمة، وهذه الدولة المحمدية، الخالدية بمكانها الدعوة المهدية،

(١) جاء هذا البيت نثرا فى المطبوع، وهو بيت شعر من الوافر.

(٢) تحرف فى المطبوع إلى: «ترى».

إليها انتهت المراشد، وعليها التفت المحامد، وبها اعتزت حين اعتزت العناصر والمحاتد، ومن خصائصها انفعال الوجود، ومن مراسمها الإيثار بالموجود، والبدار إلى إغاثة الملهوف وإعانة المنجود، ما برحت للخيرات إيضاعها وخبها، وبالصالحات غرامها وحبها، حتى لقد فهمت أسرارها، وأودعت أنوارها، وكلفت أو كفلت إفشاءها وإظهارها، يمينا أن يمين الحق به طولى، وللآخرة خير لها من الأولى، بمولانا أيده الله عز مكانها، وخلدت سديدة آثارها، شديدة أركانها، لا جرم أنَّه الطاهر كالماء الذى جلبه للطهارة، والظاهر ولاء ولواء فى مصعد الخلافة ومقعد الإمارة، بالسعادة الأبدية، وَجْدُهُ وكَلَفُه وما هَمُّه إلاّ تجاوز ما أسلفه سلفه، فجر من الأرض ينبوعا، وجدد للجدوى رسوما عافية وربوعا، ساحته الحرم، وهو زمزم قصاده وحجاجه، وراحته البحر الخضم، غير طعمه وارتجاجه.

[لله][1] ما أظهره خلالا، وأبهره جلالا «هكذا هكذا وإلاّ فلا لا» غابت كماة المعارك وشهد، ونامت ولاة الممالك وسهد، فمتى قسطوا أقسط، وإذا غورا أنبط، ولذلك ما أبطل عمله أعمالهم وأحبط، غلبهم على صفتى الندى والباس، وسلبهم منقبتى حمزة والعباس.

قال جامع هذا المصنف: أشار الإمام ابن الأبار بقوله: «منقبتى حمزة والعباس» إلى شجاعة حمزة الشهير الذكر، وثباته الذى يجلّ عن الفكر، وإلى استسقاء عمر بالعباس رضى الله عنهما، فأتى من الحيا ما عم بالإحيا، وهمر من الماء ما شفى بعميم الإرواء، نفوس الظماء، الله اعلم.

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من المطبوع وهو فى سائر النسخ.

رجع إلى كلام ابن الآبار

فلا غـرو أَنْ أمن[1] ووقى ثم لما كـسا وأطعم سـقى، آية نُعْـمَى وفت بالميعـاد، وحسنى مثلهـا يعد[2] للمعـاد، وأتت بماء معين قد أصـبح غورا، وملأت ما بين لابتـيها جنانا ترف ظلا وترق نورا، فيا بشـرى لتونس أخصب جديبهـا، وأحسن وصف الروض والغدير أديبها، وطـالما أطلعت صحراء بل بغضـاء، فكم للإمارة قبلـها من يد بيضـاء، غشيت حـبر الحبـور والسرور، وعوضت برد الظل من وهج الحرور، خمائـل وجداول، تزاول منها العين ما تزاول، تلك يضل من أحـصـاها، وهذه يصل بهـا حـصاها، ويا لـقصـرها السعيد! نعمت أدواحه، وهبت على خـضر الأغصان وزرق الغدران أرواحه، هذا وإنْ بات السـماح المفـاض يسقـيه، والجـود الفضـفاض ينقع جـواده[3] ويشفـيه، وهنيئا للمـسجد الجامـع أنْ رويت جوانحه الصادية، وجـمعت فى شرعـته السارية والغادية، فهـا هو فجره بـادى الغرر والأوضاح، وصـخره منبجس بالزلال القراح، وللجـمهور بصفوه المنسـاب، لهج الغياب بالإياب، وطرب الشيب لذكر الشباب، أمسوا قد سوغوا مآربهم، وأضحوا قد علم كل أناس مشربهم، فـهم يردون على العذب النمير، ويجدون بركـة رأى الأمير، مكرمة ذخـرها لسلطانه الزمان، كرامة هنأها بـه الإيمان، وقضية إنْ حـجبت عن داود فما حجب عنها سليمان:

---

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «فلا غرو أنّ من أَمَّن».

(٢) تحرف فى المطبوع إلى: «يعود» وصوابه من سائر النسخ.

(٣) رواية المطبوع إلى: «فؤاده» والمثبت من سائر النسخ بمعنى العطش أو شدته، وهو أنسب.

جـمعت للناس بين الرى والشـبع فـهم بأخـصب مـصطاف ومـرتبع
ولم تـدع كـــرمـــا إلاّ أتيـت به تضـــيف مـبـــتـدعـــا لمبـتـــدع
لّما وليت خلعـت الخيـر أجـمـعـه عليـهم فـبـــدوا فى أجـمل الخلع
لله أيامك اسـتـوفت مـحـاسنهـا فـلا فـضـيلة لـلأعـيـاد والجـمع
دامت مسـاعيك والأقدار تسـعدها تولى المسـاجـد إنصافـا من البـيع

اللهم إنَّ الإيالة الحفـصية، قـد أعليت مظاهرها، ونصرت معـاشرها، وقصرت على المصالح الدينية والدنيـوية مواردها ومصادرها، ثم اصطفيت من شرف بيتهـا الصراح، ومعدن سوددها الوضاح، مـولانا الأمير الأجل، المؤيد المبارك، أبا عبد الله، فانتضيته حسـاما فى يدك قَائمُه، وارتضيته إماما لا تلين فى ذاتك صرائمه، ولا يلحق شأوه فى النيل من عـداتك رائمه، يمضى بَأْسًا حين لا مـضاء للحـسام العـضب، ويهمى جـودا والسماء فـى أزر من نجيع الجدب، ينتدب سعيا لكل حسنى أعيت على القريع الندب.

فاقض اللهم لسلطانه بتأبيـد التأييد، وأدم بأيامه المباركة نعمة التـمهيد، وضاعف عزة جانبـه بأعزازه كملة التوحيد. واجـزه اللهم أفضل الجزاء، عن إفاضة النعماء، وإنارة الظلماء، وكـافئه عن نقع الغلل والأظماء، بما فجر من ينابيع الماء، وكمـا شَرَّفت فعله فى الأفعـال واسمه فى الأسماء، فـاجعله فى الدنيا داعـيا إلى سبـيلك، وفى الأخرة هاديا إلى حـوض رسولك ﷺ الذى آتيته بعدد نجوم السماء.

آمينَ آمين، والسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

ومن بديع ما كـتب به مخـاطبا رئيس مَنُورَقَة سـعيد بـن حكم القرشى رحمه الله تعالى:

إنَّ سعيد بن حكم صنو العلا نجل الكرام

رآسة بمثلها يفاخر السيف القلم

وسودد مجموعة فيه محاسن الشيم

معتمد من شأنه رعى العهود والذمم

فاتحنى ممهدا إلى جوابه القلم

عادة ندب أروع خص ببره وعم

فشكره فى كل حا لٍ ومآل ملتزم

حيا الحيا حضرته وجادها ثر الديم

اقتضبتها أيّها السيد الأعظم، والسند الأعصم، أبقاه الله، وجنابه محفود، ومنابه محمود، وحزبه مودودو وشربه مورود، ورواق السعادة والنضرة المعادة[1]، فوقه ممدود، من دانية كلأها الله تعالى، والوقت مضايق، والرعب ملازم لا يفارق، وأنا بسيادته الأصيلة دائم الاعتداد، وعلى عنايته الجميلة قاصر الاعتماد، والله يبقيه كاسمه سعيدا، ويسميه مبدئا فى المعلوات ومعيدا، بمنه.

ووصلنى وصل الله حراسته، وكلا من الغير والغيل رياسته، مخاطبته الكريمة الخطيرة، مشرفة بالسؤال عن خاص الأحوال ومنفية، بما تضمنت من الاعتناء، والبر المتوافر الأجزاء، على الأمانى البعيدة والآمال، فلثمت سطورها قياما بحقه الأكبر، ولزمت من شكره ما لا أقصر عنه بمشيئة الله تعالى ولا أقصر، وكان الظن بناديه الأشرف جميلا فقد عاد يقينا، والأمل فيه

(١) فى المطبوع: «المفادة» وما أثبتناه أنسب وهو الذى فى سائر النسخ.

منيبا[1] فعاد مبينا، ويعلم الله سبحانه أنى أعطر بذكره الأمكنة، وأزكى بشكره الأزمنة، وبودى لو ركبت ثبج هذا البحر، حتى أوفيه بعض واجبه، وأشافهه بما أجنح إليه، وأنطوى عليه من اعتماد جانبه، وإحماد مقاصده الرياسية ومذاهبه، وقد حملت فلانا عصمه الله ويسر مرامه، وأدام حفظه وإكرامه، من جمل الإعظام ما يؤديه مفسرا، وأفهمته أنى كاتبت معتقدا خالصا ومضمرا، وإنْ تفضل سيدى الأعلى حرسه الله بتكليف بعض أغراضه الكريمة، شفع يده البيضاء بمثلها، واستزاد معلوة لم يزل من أهلها، وما يصدر عن الجانب الرياسى أسماه الله من الالتفات إليه، والاعتماد عليه، فإنه معدود فى بره الجسيم، ويد من أياديه التى أعيت على التعديد والتقسيم، والله يعلى محله، ويسعد عقده وحله، ويسوغه من مورد الإسعاد، فى حالتى الإصدار والإيراد، أعلاه وأجله، ويصل حراسته، ويؤيد رياسته بمنه وكرمه.

والسلام الكريم، المبارك العميم، يخص به مقامه الأظهر، ملتزم إكباره وإجلاله، المعتد بتمامه فى السيادة وكماله، محمّد بن عبد الله بن أبى بكر من الأبار، ورحمة الله تعالى وبركاته.

* * *

وكتب له أيضًا شافعا ومعتنيا.

تعتمد رياستكم المؤملة، وسيادتكم المؤثلة، تحية الشاكر لاعتنائها، المباهى بسناها الوضاح وسنائها، المستديم للأحرار، والممتطين إليها أثباج البحار، شرف عنائها، وكرم غنائها، محمّد بن الأبار، ولا مزيد على ما عنده من إعظام يؤدى وظائفه، واعتداد يشفع بتالده طارفه، وثناء يعاطيه أولياء جلالكم ومعارفه، والله يصعد مكانكم، ويسعد زمانكم، بمنه وكرمه.

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «متينا» وصوابه من سائر الأصول.

وتتأدى إلى رياستكم، حفظها الله فى جانب أبى فلان أعزه الله، وبلغه أبعد أمله وأقصاه، وهو من علمتم مكان بيته النبيه من حيه، وسبب نزوحه عن وطنه المحبب ونأيه، واستحقاقه بالمزايا المعلومة، والسجايا الكريمة، لإجزال حفظه ورعيه، وما زال لكمالكم واصفا، وعلى تعظيم جانبكم والإفصاح بواجبكم عاكفا، إمضاء لما أكد بينكم وبينه سالف الأيام، وتمييزا بحفظ الود الذى يحفظه غير الكرام.

ومن مطالبى له حمله من التكرمة والتقدمة على النهج الأقوم، وإنزاله من جلالكم، هنا وهنالكم، منزلة المحب المكرم، وتوصية المخصوص بالسفارة فى أشغالكم المباركة، بأن يستصحبه عند الإياب، ويورده محفوظ الجانب على ذلكم الجناب، واختصاصه مع ذلكم بمخاطبة كريمة، ترفعه مكانا عليا، ويكون لما يرد عليه ويخلص بمشيئة الله إليه، عنوانا جليا، ومجدكم حرسه الله يغتفر جناية الإذلال، ويبلغ نهاية الآمال، والله يبقى رياستكم تجبر الكسير وتيسر المرام العسير، وهو سبحانه يؤيد مقامكم، ويكافئ إنعامكم، بمنه.

والسلام الكريم، المبارك العميم، يعتمد محلكم الرياسى، بدءا وعودا، ورحمة الله تعالى وبركاته.

***

وكتب يهنئ الفقيه الأجل القاضى أبا المطرف بن عَميرَة بولايته قضاء شاطبة:

بأى بنان أم بأى بيان تخط وتملى شكرها الملوان

لولاية عقد لواءها الوجوب، وأسفر وجه محاسنها المحجوب، فأشرق لألاء محياها، وتعاطى الأولياء حمياها، فما شئت من جذلان يجهر[1]

(١) فى المطبوع: «يُحَبِّر» وفى بعض النسخ: «يجهر» وهو أولى.

شكرًا، ونشوانَ يجـهد[1] سُكْرًا، يترنم كـالشادى الباغم، ويترنح كـالغصن الناعم، وكـلا أصلح الله قـاضـينا الأعلى، لا نُـكر، على من يصف حـالة السكر، وإنْ تناهى طربا، وقـضى من رفض الأناة أربا، فالمرتاح لا يتـماسك ولا يتمالك، والارتياح لا يهلك أحدا على راحـه يتهالك، لا جرم أنه تسمو به الجدود، وتدرأ عنه بالشبهات الحـدود، ويأبها المولى أشرف الخطط، الضيق عن عادى جلاله، وخالدى خلاله، أرحب الخطط.

قال جامع هذا الموضوع أحمد بن محمّد المَقَّرِىّ وفقه الله:

أشـار ابن الآبار بقـوله: «وخـالدى خلالـه» إلى إنَّ أبا المطرف من ولد خالد بن الوليد رضى الله عنه، فاعلم ذلك.

رجع إلى كلام ابن الآبار

ما نبـأ تهاداه النجد والـغور، واقتـسم الحياة والموت به العـدل والجور، سـوغ المجد المنيف نـطافه، وهز له الديـن الحنيف أعطافـه، حين قـر الحكم الشرعى فى نصابه، وشفى من آلامـه وأوصابه، وأرغم المناصب لذلك بنصبه وانتصابه، وسر معلم العلم فأساريره مـتهللة وسل حسام الحق فأبطال الباطل متسللة، وأشرع سنان الشرع فكل معتـد بالجهالة معتدل، وهب نسيم المهابة، فكل معتـز للسفاهة معتـزل، أما وخطة خطبت منك أكفى أكفـائها، وأقرت عين الهدى بتعـيينها لك وهدائها، لقد عصبت بقاض يسـعى للقوم ويسعد، ونيطت بمـاض ينهض فى ذات الله وينهـد، ولا عـجب أنْ آثرت جـلاله، واعتـمدت خلاله، فلم تك تصلـح إلاّ له، فهنيئـا لها ما ألبـست من شرف خالد، وأنْ حرست بأقلام ابن سـيف الله خالد، وبالبلدة وطئ تربتها، وبوئ رتبتها، ما أخصب عيشتها وأرغدها، وأسعد يومها وغدها، وماذا بها من دين

(١) فى المطبوع: «يجهر» والذى فى سائر النسخ: «يجهد» وهو أنسب.

ودنيا، ومجد وعليا، إذ جمعت المهاجرين إلى الأنصار، وأطلعت محامدها ومحاسنها ملء الأسماع والأبصار، لا زالت حوزتها تحوز الأكابر، وإمرتها تعز عزتها المكابر، ودام عمادنا المفضل، وعهادنا المخضل، بين ولى شاكر حامد، وعدو كاشر حاقد، ينزل الرتب المنيفة، ويطول به مالك أبا حنيفة، والله ينهضه بما تقلد، ويخلد مجده الأولى بأن يخلد.

والسلام الأتم الأكمل يخصه كثيرا، ورحمة الله تعالى وبركاته.

***

وكتب رحمه الله تعالى إلى رئيس شاطبة أبى الحسين بن عيسى، شافعا فى فكّ أسير، وتيسير عسير:

كتبته إلى سيدى، حرس الله شرفه العبادى، وكلأ كنفه السيادى، ولا مزيد على ما عندى من الإعظام لرفيع جانبه، والقيام بكبير واجبه، والله يحفظ شرف بيته العتيق، وحديث قديمه الفائت بطيبه المسك الفتيت الفتيق، ومؤديه فلان أدام الله حفظه وعصمته، وأتم عليه إحسانه ونعمته، والمذكور يمت إليكم بقديم الإخلاص، ويرغب أنْ ينظم لديكم فى أهل الإخلاص؛ وقد بلغكم ما نابه من غير الدهر ونوبه، وكيف نشب فى حبالة الأسْر الذى أتى على نشبه؛ وعلمكم بنباهة بيته أغنى عن التنبيه عليه، وفضلكم كفيل بتسيب الإحسان إليه؛ وقد وثق بسعيكم الكريم فى جبر كسره، وأمل سيادتكم للتهمم بأمره، والتصرف فيما يصرف عليه بعض ما بذل فى خلاصه من أسره؛ ومثلكم اصطنع أمثاله، وآثر فيما يليق بنباهته استعماله؛ والله يعلى شأنكم، ويحرس مكانكم والسلام.

***

وكتب أيضًا شافعا بما نصه:

تلك السجايا العذاب، والكرم اللباب، والساحة التى ألبسها جدته الشباب؛ مخصوصة بتحية التوقير والتكبير، المعبرة أنفاسها العبقة عن العبير. ومنهيها من زان قومه الأمر والنهى، وحسم قضاؤهم وعطاؤهم الوهن والوهى؛ فلان، جمع الله له بين الأوطار والأوطان، وأعاده إلى عادته من عزة الجوانب وشدة الأركان؛ وهو كريمة كرام، آلت بعدهم الأيام، وشكا فقدهم الأنام، ولبست الحداد عليهن الأسياف الحداد والأقلام؛ وما بانوا إلاّ وأياديهم أطواق فى الرقاب، وتشريفهم باق فى الأعقاب، على مر الأحقاب.

وهذا فلان عرفه الله إسعاد الأقدار، وأعفى مشاربه ومشاعره من الأكدار؛ يروق وقاره، ويكرم سباره وعينه فراره؛ وأدنى حلاه الطلب، وبعض خصائصه الأدب؛ ثم شأنه الأخطر شانه، ومكانه من حيه الذى يتقدم الأحياء مكانه؛ ورأى عند أخذه فى النقلة، وعزمه على الرحلة؛ أنْ يستصحب إلى مجدكم هذه الحروف، ويستدفع بمعلوم جدكم الصروف؛ وإنْ تأملتم ماله من سمت وسيما، أقبلتموه وجه الإقبال وسيما؛ وأوليتموه من رعى الحق الواجب، ما يراه ضرباؤكم ضربة لازب؛ والله يبقيكم للمكارم تشيدون رسومها الدائرة، وتنظمون عقودها المتناثرة؛ وهو تعالى يكلأ محلكم الرحيب، ولا يعدمكم من الزمان وأهله الترجيب والترحيب، والسلام.

* * *

ومن نظمه رحمه الله قوله فى المجبنات:

بنفسى مثلجات للصدور ... لها سمتان من نار ونورِ

حوامل وهى أبكار عذارى ... تزف على الأكف مع البكورِ

كبرد الطل حين تذلق طعمًا ... وفى أحشائها وهج الحرورِ
لها حالان بين فم وكفٍ ... إذا وافتك رائعة السفورِ
فتغرب كالأهلة فى لهاة ... وتطلع فى يمين كالبدورِ

* * *

وقوله يشكو الزمان:

تحيف حالتى حيف الزمان ... وصدق اليأس من كذب الأمانى
وبرت فى أليها الليالى ... بترويعى فَأَنَّى بالأمانِ[1]!
أما قنعت وقد كلفت بهضمى ... وضيمى دون أبناء البيانِ
أحاول أنْ أقوم لما يواتى ... فتقعدنى الخطوب بلا توانى
وأطباق الثرى بالحر أحرى ... إذا ألفى الثراء من الهوانِ
فهل من آخذ بيدى أخيذٍ ... بعين الله شدة ما يعانى
أيا ما أشتكيه من أيامى ... عوار فى يد البلوى عوانى
وما أبلغى على تلفى دليلا ... كفانى أننى حى كفانى

* * *

وقوله أيضًا:

يعيرنى قومى بجفوة سلطانى ... ويشفيهم شكوى بنبوة أوطانى
يرون خمولا عطلتى لتوقفى ... وتلك على محض النباهة برهانى
وقالوا خفوف قلت لا بل رجاحة ... كفتنى إلقاء بكفى لإذعان

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «فَإِنِّى».

إذا عـــهـــدونى للنزاهة راكـــبـــا فـصـعب الأسى وإنْ هد أركـانى

❊ ❊ ❊

وقوله أيضًا رحمه الله:

علت سنى وقـدرى فى انخفـاض وحكم الـرب فى المربوب مـــاض

إلى كم أســـخط الأقـدار حـــتى كـــأنى لم أكن يـومـــا بـراضى

❊ ❊ ❊

وقال أيضًا فى معنى التسليم للمقدور:

أما إنَّه قـد خط فى اللوح ما خطا فلا تعـتقد للدهر جـورًا ولا قسطا

ولا تسخط المقدور وارض بما جرى عليك به إنَّ الرضا يفـضل السخطا

وقال أيضًا رحمه الله فى معناه:

إلام فـى حـل وفـــى ربـط تخـبط جـهلا أيمـا خـبط!

دع الـورى وارج إله الـورى فـإنه ذو القـــبض والبـسط

ليس لما يـعطيـه من مـــانع ولا لما يمـنع من مـــعـطى

❊ ❊ ❊

وقال رحمه الله معارضا للرصافى فى أبياته التى أولها:

«ومهذب الشطين تحسب أنَّه»

بقوله:

ونهـر كمـا ذابت سـبـائك فضـة حكى بمحـــانيـه انـعطاف الأراقم

إذا الشفق استولى عليه احمراره تبدى خضيبا مثل دامى الصوارم

وتحسبه سنت عليه مفاضة لإرهاب هبّات الرياح النواسم

وتطلعه فى دكنة بعد زرقة ظلال لأدواح عليه نواعم

كما انفجرت المطل على الدجى ومن دونه فى الأفق سحم الغمائم

(*) وقال - ملغزا فى اسم رشا:

أشر على برأى فى هواى فقد

أصبحت أجهل ما آتى وما أذر

ومن هويت - عدانى - أن أسميه

من الوشاة عليه الخوف والحذر

أومأت - عمدا - إليه إذ نسبت به

ولم أبح - طمعا - أن يكتم الخبر

فأقبل تجده ولا تعجل بمعتبة

فليس يخفى - وإن أخفيته - القمر

وأنشد ابن الأبار لنفسه - بعض أصحابه يوم الثلاثاء، وقتل يوم السبت -:

ونارنجة شبهتها - مذ رأيتها

بجمرة نار لا يطير لها شرر

فناولها من وجهه فتآلفت

فقلت: انظروا المريخ فى دارة القمر

(*) من هذه العلامة إلى مثلها فيما يلى ساقط من المطبوع وهو فى مخطوطة الرباط رقم ٧٨٤.

وأنشدهما أيضًا بأن جعل آخر البيت الأول:

(بجمرة نار وهى باردة اللمس)

وآخر البيت الثانى: (فقلت: انظر المريخ فى دارة الشمس)(*).

وقال أيضًا فى معناه:

سقيا لروض ردته رأد الضحا ... وحمامه طربا يناغى البلبلا

شتى محاسنه فمن زهر على ... نهر يسيل كالحباب تسلسلا

وكأنما حمى الربيع لقطفه ... واستل منه يذود عنه منصلا

غربت به شمس الظهيرة لا تنى ... إحراق صفحته لهيبا مشعلا

حتى كساه الدوح من أفيائه ... بردا تمزق بالأصائل هلهلا

وكأنما لمع الظلال بمتنه ... قطع الدماء جمدن حين تخللا

وقال فى معناه أيضًا:

لله نهر كالحباب ... ترقيشه سامى الحبابْ

يصف السماء صفاؤه ... فحصاه بذى احتجاب

وكأنما هو رقة ... من خالص الورق المذاب

غازلت فى شطيه أبـ ... ـكار المنى عصر الشباب

والظل يبدو فوقه ... كالخال فى خد الكعاب

لا بل أدار عليه خو ... ف الشمس منه كالنقاب

مثل المجرة جون[1] فيها ... ذيله جر السحاب

(١) هذا الصواب من سائر النسخ ونفح الطيب، وفى المطبوع: «جر».

وقال فى تمثال نعل النبى ﷺ من قصيدة:

سجام لعمرى أدمع وسجال ... لأَنْ عَنَّ[1] من نعل الرسول مثال

وهل يملك العينين فى مثلها سوى ... خلى عداه عن هداه ضلال

ومنها:

مثال إلى نعل المطهر يعتزى ... فإعزازه للحُسْنين منال

أقبله شوقا تملكنى لما ... حكى وشهيدى لو يفوه قبال

وإلى اشتراك فى التزام شراكه ... وحسبى منه عصمة ومنال

ومعقِده مما عقدت به الهوى ... فلا صح عزمى إن صحا لى بال

مرادى من تمريغ شيبى عليه أن ... تسح من الرحمى على سجال

ومن وضعه فى حر وجهى ورفعه ... لقمة رأسى أن يعز مآل

فأحظى بحظى من جوار محمّد ... وهل بعد تنويل الجوار نوال

وله فى ذلك المعنى أيضًا رحمه الله:

لمثال نعل المصطفى أصفى الهوى ... وأرى السلو خطيئة لن تغفرا

وإذا أصافحه وأمسح لائما ... أركانه فمعززا وموقرا

سرى اعتزازى فى جهار تذللى ... لجلالله أَثَرًا بقلبى أَثَّرَا

إن شاقنى ذاك المثال فطالما ... شاق المحب الطيف يطرق فى الكرى

لى أسوة فى العاشقين وقصدهم ... لثم الطلول لأهلهن تذكرا

وبكائهم تلك المعاهد ضلة ... تحت الظلام على الغرام توفرا

(١) هذا المثبت من سائر الأصول وهو أنسب. والذى فى المطبوع: «عز» بعين ثم زاى.

أفلا أمرغ فيه شيبى راشدا وأريق دمعى وسطه مستبصرا
ثقة بإثرائى من الخيرات فى شغفى بنعلى خير من وطئَ الثرى

* * *

وقال فى التشوق إلى الضريح الشريف على الدفين به صلوات الله وسلامه:

لو عَنَّ لى عون من المقدار لهجرت للدار الكريمة دارى
وحللت أطيب طينة من طيبة جارا لمن أوصى بحفظ الجار
حيث استبان الحق للأبصار لما استثار حفائظ الأنصار
يا زائرين القبر قبر محمّد بشرى لكم بالسبق فى الزوار
أوضعتم لنجاتكم فوضعتم ما آدكم من فادح الأوزار
فوزوا بسبقكم وفوهوا بالذى حملتكم شوقا إلى المختار
أدوا السلام سلمتم وبرده أرجو الإجارة من ورود النار

استطراد لما قيل فى نعل النبى ﷺ

قلت: وإذ جرى ذكر النعل النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فلا بد أنَّ نورد جملة مما قيل فى مثالها على جهة التبرك، والتوسل[1] بصاحبها إلى الله سبحانه، أن يفرج عنا بجاهه كرب الدنيا والآخرة، وأن يجعلنا من الذين حازوا الرتب الفاخرة، وظفروا بالمقام الأسنى، وفازوا بالزيادة والحسنى.

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «التوصل» بالصاد.

فمن ذلك قول الشيخ أبى عبد الله محمّد بن فرج، مخمسا لأبيات الإمام الشهير أبى الربيع بن سالم الكلاعى، رحمه الله، التى على رويها وقافيتها سلك ابن الآبار، رحمه الله، فى الأبيات المذكورة آنفًا:

خبال عرا ما إنَّ جناه سوى النوى

نوى من نوى من كشف بلواى ما نوى

فيا منكر ما قد عرانى فى الهوى

«خواطر ذى البلوى عوامر بالجوى ففى كل يوم يعتريه خبال»

سمعت اسمه الأعلى الشريف المشرفا

فخيلتُنى يعقوب ذكر يوسفا

ومن شيم الصب المتيم ذى الوفا

«متى يدع داعٍ باسم محبوبه هفا فيهتاج بلبال ويكسف بال»

رعى الله صبا بالهوى نفسه سمت

له آية فى الحب بالكتم أحكمت

فما لم يلح من حبه أثر صمت

«وإن ير من آثاره أثرًا همت له من غروب المقتلين سجال»

فيا نفسى الجالى دجاها هلالها

أما إنَّه نور البدور كمالها

ألا فاعذرى نفسا تحن فحالها

«كحاكى وقد أبصرت نعلا مثالها لنعل الرسول الهاشمى مثال»

ويأيها الرانى إلى مفندا

وقد كدت لولا نهى حبى لأسجدا

هوى وجوى إنْ يبل دهر تجددا

«عرانى ما يعرو المحب إذا بدا لعينيه من مغنى الأحبة آل»

ذكرت به عصراً مضى ومعاهدا

فنوديت من نفس نداءً مساعدا

وجدت[1] فعاود لثمه تدع واجدا

«فقبلت فى ذاك المثال معاودا أرى أنَّ ذلى فى هواه جلال»

وشبهته صفحا ونفحا حديقةً

مفتحة الأزهار غَنَّا أنيقة

شقتها غوادٍ قد غدون غديقة

«ومثلته نعل الرسول حقيقة وإنى لأدرى أنَّ ذاك محال»

فيا جاهلا داء المحبين والدوا

غويت ولا تدرى فلا كان من غوى

أتنكر لثم المثل فى حالة النوى

«ومن سنة العشاق أنْ يبعث الهوى مثال ويقتاد الغرام خيال»

تساوت معانى الحب فى كل مقصد

(١) هذا الصواب بالجيم من سائر النسخ، والذى فى المطبوع: «وحدت» بالحاء المهملة.

فـمن مـقلة عـــبـرى وجـفن مـسـهـد

وبرح وتهـــيـــام وشـــوق مـــجـــدد

«فـلا فـرق إلاّ أنَّ حُبَّ مـحـمّـد هدى والهوى فـبمن عـداه ضلال»

انتهى.

***

ولمحمد بن فرج المذكور عفـا الله عنه، وتقبل بكرمه ورحمته منه؛ قطع على حروف المعجم، فى لزوم ما لا يلزم؛ وسماها بالقطع المخمسة، فى مدح النعال المقدسة.

قال رحمه الله حسبما نقلت من خطه:

وآثرت التخمـيس على التعشير، ليكون أسرع لحـفظها، وأبرع للفظها؛ وأيضًا فوجود خمس من القوافى فى نظم لزومى أو نثر، أهون على الفكر من وجود عشر. هذا وإنْ كان اللسان العربى فصـيحًا فسيحًا لا يضيق، ولا يكاد يخرج عنه لسـان كل فريق؛ ليس من شـرط المطالعة، أنْ يحـفظ الغريب من الكلام كل من طالعه؛ والله سبحانه أسـأل أنْ يجعلها من القربات التى تنفع، والوسـائل التى تشـفع، والتـمـائم التى تذود كل سـوء فى الدارين وتدفع، وصلى الله على الشفيع المشفع؛ وسلم تسليمًا، من آفة الانفصال سليما.

قافية الهمزة

أتمثـال نعل كـان يـلبـسـهـا الذى إذا عُـدت الأرسـال ليس له كفء

أبو القاسم الأسمى الذى وطئ السما بأخـمـصه ليـلا فـشرفـهـا الوطء

أقـبـل فى طرسٍ حـواك كـــأننى عليل وفى تقبـيل شكلك لى البرء

أنا المـرء بالآثـار ممن هـويتـــــه قنعـت وقـــد يخطى إذا قـنع المرء
أأحمـد لا يهوى الفؤاد سـواك ما تقدم عـود الشيء فى الرتبـة البدء

قافية الباء

بنفـسى مثـال النعل نعل مـحمـدٍ نبى الهدى المخصوص بالقرب والحب
بدا لى فـكأن البـــدر جَلَّـى بنوره غيـاهب أشجان تراكـمن فى قلبى
بكت مقلتـى شوقًا للابسـها وهل بِمُطْفِـئَةٍ نـار الأسى دمعـه الصبِ
بعثت به شـخصًا من الأنس ميـتًا فـبشـرنى بالقـرب منه على قـربِ
بموطئـــهـا قـــد شـــرف الله تربة عليها مـشت فالتبر يحـسد للتربِ

قافية التاء

تلوت وقد أبصرت مـثلاً لنعل من تميـز بالوصف الشـريـف وبالنعتِ
ترفـعت من نعلٍ بأخمص مـرسلٍ قَدَ انقذ من شر الطواغيت والجبتِ
تقدست الأرض التى قـد مشى بها عليهـا فصار الفوق يغـبط للتحتِ
تمنيت لـو أَنى ظفـــرت بتـربهـــا فمـرغت فيه الخـد للحين والوقتِ
تمنى صـبٍ عـــاشق دنـفٍ جـــوٍ مـعنى كـئـيـبٍ حـفظ ذى الستِ

قافية الثاء

ثمار الأمانى قد جنى الطرف إذا رأى مثال نعـال المصطفى من أولى البعثِ
ثراها ومن أعـلاه طـاب نسـيـمـه وما أنا فى هذى اليمين بذى حنثِ
ثريا السـمـا ودت لتنقل يا ثرى[1] إليك فلم تنقل فـها هى ذو بث[2]

(١) هذا الصواب من سائر النسخ، وفى المطبوع: «بالثرى».
(٢) هذا الصواب من سائر النسخ، وفى المطبوع: «فها هن فى بث».

ثويت به يا طيب فهو كـمسكةٍ يفوق شـذاها المسك فى الـطيب والمكثِ
ثوابى يا مـن شـرفت بـلبـاســه على مدحها تأمـين خوفى فى البعثِ

قافية الجيم

جللت أيا نـعـلاً بأخـمص سـيـدٍ إلى حـضرة القـدس العلية عـارجِ
جـبلت على حـبٍ له فـمـتى بدا من آثاره شـىء تثـور لواعـجى
جنى الأنف منهـا زهر روض إذا انبرى نسـيم شـذاه بَذَّ عـرف النوافجِ
جبـرت به صدعًا جناه الهـوى وما شُغِـفْتُ بغنج الخود ذات الـدمالجِ
جـزى الله عنى القلب خـيرًا فـإنه تعـلق بالهـادى لأهدى المنـاهجِ

قافية الحاء

حظيت أيا نعـلاً بأخـمص مـرسلٍ قد أنزل رب العرش فيه ألم نشرحْ
حللت بساط القدس حـين عروجه ليوضح فى المسـرى له الله ما أوضحْ
حلفت: لأرض قـد وطئت ترابهـا لكالمسك مفـضوضًا أمـا إِنَّه أفوحْ
حللت نـطاق الكتم لما رأيـتـهـا فصرح من حـبى اللسان بما صرحْ
حبيبى الرسول المصطفى ومن أجله مـدحت لنعـليـه وحق بأن أمـدحْ

قافية الخاء

خـذيهـا أيا نفسـى المشوقـة كلمـا سـرى نـفس ممن هواى بـه بذخْ
خميلة شِـعرٍ أودعت مدح نعل من بشـرعـتـه كل الشـرائع قـد نسخْ
خضـبت نصال الشـيب لما رأيتـها بدمع مـحب عقـد كتـمانه فـسخْ

خطاها أفـاد الأرض زهوا فـأنفهـا على قمم الشهب المنيـفة قد شمخْ

خـصـصت أيا نعـلاً بأجلى مـزية تبين لمـن فى العلم أخمـصه رسخْ

قافية الدال

دع الطرف يسرح فى رياضٍ تزينت بمدح نعالىْ المصطفى الرسـول أحمدا

دعى فمـشى فوق السـماء فلم يطأ بها مـوضعاٍ إلاّ وأصـبح مسـجدا

دنا فـتـدلى قـاب قـوسـين إذ دنا فأوحى الذى أوحى إليه من الهدى

دنوَّ حـبـيب من حـبـيبٍ لأجله لآدم أمـلاك السـمـوات أسـجـدا

درى فضله من فى السـماء فكلهم يرون وجـيـه المرسـلين مـحـمـدا

قافية الذال

ذر الأنف يسـتنشق خمـائل روضةٍ تبـذُّ نسـيم المـسك أنفـاسـهـا بذا

ذكـرت بـه نعـلاً لأكـرم مـرسلٍ براه الذى أعـلاه فى رسله فـذا

ذرور ثراها المسك فـاق فـإن تسل عَنَ اذكى من المسك الفتـيق شذًا فذا

ذكـاء تمنت أنْ تكون سـحـاءةً تعى مدحـها أو جلدة مثلهـا تحذى

ذوو حـبـه التـذوا برؤيتـها كـمـا بثـوب ابن يعقـوب أبوه قد التـذا

قافية الراء

رأيت مـثـال النعل الـذى به إلى حضرة القدس العلية قد أسرى

رعى الله منهـا نعل أى كـريـمـة برجلٍ علت فخرًا على قـمة النسرِ

روى أنه نوى وقـد رام خلعـهـا وماء الحيـا فى وجنتيه معًـا يجرى

رسـولى لا تخلع تشـرف بوطئهـا بساطـى يا معنى وجـودى يا سرى
رفـعت لواء المكرمـات جميـعهـا بيمنى العلا والناس فى قـبضة الذر

قافية الزاى، وهى متجانسة

زفيـر اشتيـاقى إذ بدا نعل معـتقى مخـاطبتى كتـمى وعزمى قـد عزا
زكت شـفة قـد قـبلت نعل سيـدٍ به عـالم الإنسـان أجـمـعـه عـزا
زعـــيم به هنا الـسـرور لـنا وفى مصـائبنا العظمى المصـاب به عزى
زهو سناه ظلمـة الشـرك قد جـلا ولولاه كنا نعـــبـد اللات والعـزى
زمـــانى لا أنفك لاثمـــهـــا أرى هوان هـوانا يا أخـــلاءنا عـــزا

قافية الطاء

طوت بعض ما من وحشةٍ نشر النوى نعـال خطاها فى المـكارم لا تخطا
طفقت أنادى حـين لاحت لناظرى وزند الهوى بالسقط قد وصل السقطا
طب انعم تنـزه يا فـؤادى فـهـذه نعال الذى جاوزت فى حبه الفرطا
طبـعنا على حـبٍ له فـمـتى يلح لنا أثر نـنثـر مِنَ ادمـــعنا ســـمطا
طلعنا نجـــومًـا فى هواه فـأفـــقنا قَدَ اخـلد عنه النجم للأرض وانحطا

قافية الظاء

ظللـت أنادى إذ رأيت نعـــال من قـد أنقـــذنى والحـمـــد لله لظى
ظهـرت لنا فى شكل بدرٍ فلم نكن لبـدر الدجى من بعـد ذاك لنلحظا
ظمـئنا فكنت الماء مـقلوب همـزةٍ نقـعت ومـيم جىء فـى إثرها بظا

ظهـيـرى رسـول الله أنت لحظتنى بهذى وفى الأخـرى ترى لمن الحظا
ظلالكم مـن كل سـوء حـفـظننى وما كنت لولا الفـضل منكم لأحفظا

قافية الكاف

كـرمت أيا نعـــلا لأكـرم مـرسلٍ به وهو وسطى السلك قـد ختم السلكُ
كـأنك فى عـينـى نافـجـة خلت وأبقى بها للأنف من نفـحه المسكُ
كتمت فلما لحت لى باح محجرى بسـر مـــعنى قلبـه بالـنوى يشكو
كـفـــانى كـفـانـى أنْ بدا أثر لمن به من إسـار الشرك قـلبى مفـتكُ
كريم كـرام الرسل أحمـدها الذى بتوحـيده الإشراك أودى فـلا شركُ

قافية اللام

لمثلـك يا نعـــلا بلابســـهـا نـعلو ويا طيب فيهى[1] كلما قلت يا نعلُ
لثـمت ومـا أبغـــيـه باللثم لا ولا سواه فما قصدى النعال بل[2] الرجلُ
لها الله من رجلٍ مـشت بأجل من شـأى رسل الله الـكرام وأنْ جلوا
لنا قـد أتـى منا عـزيز عليـــه مـا عنتـنا رءوف راحم مـــا له مـــثلُ
لعـمـرى لولاه لما سحت الـسمـا ولا دحـيـت أرض ولا برئ الكل

قافية الميم

وفيها وفيما بـعدها لزوم زائد لم يهد الله إليه ولا ألهم، إلاّ بعد الفراغ من نظم ما تقدم، وإلاّ فـجناب مجده فسيح، ولسان الألكن فى مـدحه عليه السلام فصيح، وصلى الله على سيدنا محمّد النبى المليح:

(١) كذا فى سائر الأصول وهو أنسب، وفى المطبوع: «قلبى».
(٢) هذا الصواب من سائر الأصول، والذى فى المطبوع: «بلا».

مثـالك نعل المصطفى هاج لى جوى جناه هوى قلبى السـعيـد به سمـا
مـددت له عـينى مـشـوق به على صـبـابتـه ألا تحـول قَدَ اقـسـمـا
مـشـيت به فوق السـمـاء فكلمـا وطئت سماء فـاخرت فوقهـا سما
مـوكـئـه قـسـمن فـيـهـا مناسكًا فـأسمـى الذى أدناه ذاك المقـسمـا
محـمّد أبكيـت الثرى إذ عرجـتم وعـدتم إليـه بعـد ذا فـتـبـسـمـا

قافية النون

نظرتُ بعـينى هائم القلب مـدنفٍ شـجى أبى إلاّ البكا طرفـه خـدنا
نعال حـبيبٍ مصطـفى من حبيـبه دنا فـتدلى قـاب قوسـين أو أدنى
نبيٍ جمـيع الرسل ساد حلىً كـما بمبـعثـه فـينا جمـيع الورى سـدنا
نجيٍ لرب العـــرش ناجٍ مـحـــبـه غدا من لظى ذات اللـظى وارثًا عدنا
نزعنا إلى التوحيد من ملك شركنا ولولاه مـــــا والله لله وحـــــدنا

قافية الصاد

صبرت فلمـا لاح لى مثل نعل من حلاه تـعالت أنْ تعـد وتستقـصى
صببـت دموعًـا من جـفونٍ كأنـها عزالى سحابٍ نؤيهـا النأى قد أقصى
صبوت هوى فى السيد العلم الذى قد أسرى به ليلاً إلى المسجد الأقصى
صمـيمٌ صمـيم الجلة القمـر الذى وقاه الإله المحق والكسف والنقـصا
صـــــراطـى هواه للـجنـان وإنَّه يقى ووقى جيد اعتـصامى به الوقصا

قافية الضاد

ضلوعى لا تهـدا ودمـعى لا يرقـا ... وليس سوى حاليهما منهما أرضى

ضلالى هدى فى ذا الهوى عند أهله ... ذوى النظر الأقوى ذوى السنن الأرضى

ضعوا قلبى الشـاكى بحيث نعالهم ... فـآثارهم تشفى أحـبـتهـا المرضى

ضممـت نعال المصطفى رجله التى ... بها شـرف الله السمـوات والأرضا

ضعوها كمـثلى فوق أرؤسكم فقد ... زكا من رأى تعظيم مقـدارها فرضا

قافية العين

على وجنتى فاضت دمـوعى فصرحت ... بســـر فـــؤادٍ بالتكـتم أولعـــا

عـشى بدت نعل الحـبيب كـأنهـا ... هلال بآفـاق القلوب قـد اطـلعـا

عـجـبت لقلبـى أنْ رآها ولم يطر ... ويخرق شـغافًـا قد حـواه وأضلعا

عـراه خـيال فـاسـتـقـر ولم يطر ... إليهـا وشيكًا حـين بالأمر طـولعا

عـسى مـن أرانى نعله أو مـثـلهـا ... يرينى ضـريحًـا للـمكارم مطلعـا

قافية الغين

غليلى لا يطفـا وشجـوى لا يفنى ... ودمـعى لغـيـر المزن ليس بمنبـغى

غـسلت به رين الجوى وهو نكتـة ... بخدى وقلت اسفك نجيعك واصبغِ

غـداة بـدت نعل لأكـرم مـــرسلٍ ... رفـيع شـــفـيعٍ ذى مكـارم سُـبَّغِ

غـــيـــور شكور راحمٍ مـــتـلطفٍ ... كـريمٍ منيلٍ واسع السـيب مـسـبغِ

غـلامك يا مولاى يبـغى شـفاعـةً ... وذلك أمـر مـــا لغـيـرك ينـبـغى

قافية الفاء

فـؤادى لا تشك البـعـاد فـهـذه نعـالهم فـاستـشـفين بهـا تشـفى

فَـمِى قَـبِّلَنْهَـا مـثل نعل كـريمـةٍ بتقبـيلها يشفى سقام من اسـتشفى

فليت يمـينى والشمـال ومسـمعى قلبن شفـاهًا تحسن اللثم والرشـفا

فأطفـئ بالتقـبيل والرشف جـمرةً قَدَ اشعلهـا شوق على الهلك بى أشفى

فـأقسم يا نعـل الحبـيب لأنت من شراب بطون النحل للمـشتكى أشفى

قافية القاف

قُلَيْـبِى لا تقنط فـهـذى نعـال من علقت به من قـبـل مـرتبـة العلقْ

قد ابصـرتها فى أفـق كفى كأنـها هلال منيـــر للعـيـون قـــد ائتلقْ

قـفا فى السنـى آثاره القمـر الذى للابســـه كـالـبـردة انشـق وانفلقْ

قـــرأت حـذار العـــين لما رايتـــه بأفق يمـينى طـالعًـا سـورة الفلق

قست مهجة قـد أبصرته وما جرت مـسـابقـةً شهـب المدامع فى طلق

قافية السين

سـمـوت أيا نعل الـرسـول برجله على قمم الشهبان والبدر والشمسِ

سـرى ليلة المـعـراج فـوق براقـه ليـسمى أقطار الـسمـوات باللمسِ

سـمـاء به فلتـفخـرى بدر سـؤددٍ سليم السنى يضحى منيرًا كما يمسى

ســراج به طلنا الذيـن تقـدمـــوا ولا عجب أنْ يفـضل اليوم للأمسِ

سلـمنا بفـــضـل الله لكننـا وهم حروف ومـا الإطباق فى الحرف كـالهمسِ

قافية الشين

شـمـخت أيا نعـلا لأكرم سـيـدٍ رسولٍ على السبع السموات قد مشى
شريفٍ له قد أسجـد البدر والتفت إليـــه تجـده بـالتـرب مـنمـشـا
شغى مبصرى القلب والطرف نوره وقد كنت أعشى القلب والطرف أعمشا
شـفاعـتـه نرجـو امتـداد ظلالهـا إذا ما الرجـا فيمـا سواها تكمـشا
شققت جـيوب الكتم وجدًا وقلت يا يدى ولهى خد[1] التصبر فـاخمشا

قافية الهاء

هى النعل قد كـانت سماء ورجله هلالاً غـما أسنى وأضـوأ أفـقهـا
هيـا منكرًا تقـبـيلهـا بعـد بدرها على دنف مـا أنت مـنه بأفـقـهـا
هل القصد إلاّ رجـل لابسها الذى سيـسمـعنى يوم القيـامة خـفقـها
هلالى وشمسى فى دجى الحشر سيدى مـبلغ نفـسـى مـا يوافق وفـقـهـا
همت عـبرتى شـوقًا له إذ رأيتـها فما ترجى الأجفان مـن بعد رفقها

* * *

انتهى ما ألفـيته من هذه القطع ولم أجد تكملة الحروف؛ وقـد كمل ما بقى منها على نمطها، صاحبنا الفقـيه الأصيل أبو الحسن الشامى، حفظه الله، وسيأتى ذلك قريبًا.

وألفيت أيضًا بخط هذا الشيخ محمّد بن الفرج السبتى، رحمه الله عدة قصائد ومقاطع فى هذا الغرض، منها قوله رحمه الله:

(١) هذا الصواب من سائر الأصول، والذى فى المطبوع: «وهى حبل».

ولقد رأيت مثال نعل محمدٍ فاشتد شوقى عند ذاك وهاجا
فظللت أمسح وجنتى بشسعه مسحًا وأجعله برأسى تاجا
يا نعل أكرم مرسل لما أنى دخل الورى فى دينه أفواجا
كرمت من نعلٍ حوت رجلاً مشت بأجل بادٍ فى الظلام سرجا
شرفت بموطئ نعله السبع العلا لمّا ارتقاها عارجًا ليناجى

***

ومنها قوله رحمه الله:

نثرت محاجر مقلتى من سلكها درًا وشذًا مفرغًا من سلكها
شوقًا لمبعوثٍ أتى فاستبشرت مهج الورى بنجاتها من هلكها
عاينت مثل نعاله ومحمّد هو خاتم الأرسال وسطى سلكها
فوجدت فيها ريحه ولربما فاح النوافج بعد فرقة مسكها
أشرف بها نعلاً عمائم كل ذى شرفٍ تقر بأنها من ملكها
فلق وعت قدمًا سعت فى فلكها من راحتى كفرانها أو شركها
جعلت موطئها الملائك عندما أسرى به ليلاً مواضع نسكها
يا ليت أعضائى شفاه كلها فمتى تقبلها شفاهى تحكها
قد كنت ذا خوفٍ ووحشةٍ أبدلا رغد المسرة للفؤاد بضنكها
فكأنها صك أتى عبدًا وقد تعطى الموالى أمنها فى صكها
وهلال اطلع فانجلى من وحشتى ما قد تراكم من سحائب حلكها

فـأنا العتـيق وإنْ تشك النفس فى عتـقى يمط للحين عـارض شكها
يا منجى الحـوبـاء من بحـر الردى ولقـد غـدا لولاك مـعطب فلكهـا
شكوى غـريق ذنوبه مهمـا شكت حـــوباؤه لـســـواك لم يشـكهـــا
ولقـد أمـرت بتـرك أسبـاب بهـا تقوى الذنوب فـما أخذت بتركـها
ولئن هدمت مـــبـانيًـا مـسـتـورةً بسـتـور لطف لا سبـيل لهـتكهـا
فلقـد بنيـت من الرجـاء مـبـانيًـا ردت فـواتك خيـفـتى عن فتكهـا
وجـعلت حبك يا مـحمّـد أسهـا علمـا بأن الأس ممـسك سـمكهـا
صلى عـليك إلهـنا مـــا ظـل أنـ ـفٌ ذكرك العطر الـشذا مسـتنكها

* * *

ومن ذلك قوله رحمه الله:

أقول وهجـرانى سيـعقـبه الوصل فعقد الهوى الشرعى ما أنْ له حلُّ
غـداة رأت عيـنى مثـال نعـال من بدا فهـدى أهل السعـادة إذ ضلوا
تمنيـت لو أنى ظفـــرت بتـــربةٍ عليـها مـشت نعل بلابسـهـا نعلو
فـأكـحل عـينًـا أرمـدت ببـعـاده وليس سوى ذاك التـراب لها كحلُ
هو الكحل يجلو ما بعينى من قذى وكم كحل انْ تكحل بـه العين لا يجلو
فطوباك طوبـى ثم طوبى وحق أنْ أردد طـوبى ثـم طوبـى أيـا نعـلُ
فإنك قـد أودعت رجلاً علت على بسـاط عُـلا لم تعله قـبلهـا رجل
فـأقسم لو تؤتى العـمـائم سؤلهـا لما كـان غير النـعل كان لهـا سؤل

وناهيك من رجل مشت بمحمدٍ مفضل رسل الله إنَّ عدت الرسل
أبو القاسم الأسمى وطئ السما فنودى من فيها ألا خلفه صلوا
ولو لم تطأها رجله كان للثرى على الفلك الأعلى بموطئها الفضل
فيا مرسلا ما فى النبيين مثله رسولا وهل للشمس من جنسها مثل
أنرت ظلام الجهل فالقلب نير محا العلم منه أحرفا خطها الجهل
فكان كمثل السيف أصبح صادئًا وأمسى وقد جلى مضاربه الصقل
يلوح به الإيمان شكلا لناظرٍ ولولاك لم يطلع به ذلك الشكل
فحق لذى عقل بأن يقطع المدى مدى غمره ما دام يصحبه العقل
وما شغله إلاّ امتداح جلالكم فنعم الفتى من شغله ذلك الشغل
أمولاى يا مولاى ألفا وبعده كذلك ألف ثم ألف له قبل
عديد الحصى والرمل بل عد ما إذا بدا فالحصى جزء بدا منه والرمل
فحبكم كهفى الذى مذ حللته إذا اشتد بى الكرب على الفور ينحل
وسيفى السريجى الذى مذ سللته رأيت خطوب الجهل عنى تنسل
ورمحى الردينى الذى مذ شرعته صرعت به ثكلى فلا نعش الثكل
وقوسى التى مذ سدد الصدق نبلها أصابت أسى ما خاب له نبل
فهأنا فى ظل من الأمن قاطعٍ على الأمن أن يتدلى ذلك الظل
ومن يدرى ما أدرى من افضالك الذى هو الباب والإفضال أجمعه فصل
أو الأصل والإفضال بعض فروعه وما يستوى فى الرتبة الفرع والأصل

ينم آمنا من جور دهر صروفه سواهر واستقضى وليس له عدل
محمّد يا غوثى وغيثى كلما تجهمت الأيام أو أجحف[1] المحل
محمّد يا حرزى[2] وعزى كلما تفاقمت الأهوال أو طرق الذل
أكرر فى أحوالى اسمك إِنَّه كالشهد ما كررته فى فمى يحلو
أما إِنَّه أحلى وأيمن مجتنى فكم مجتن للشهد تلسعه النحل
وإنَّ كان فى الشهد الشفاء لمشتكٍ بعلة جسم أصلها الشرب والأكل
فباسمك يشفى كل قلب إذا اشتكى إليك بداء جره القول والفعل
وما جسد الإنسان مثل فؤاده فمنزل ذا علو ومنزل ذا سفل
فبالفضل يا ذا الفضل والبذل إن عدت خطوب ولما يلف فضل ولا بذل
أَجِرْنى من نار ضريع طعامها ومهل وما يغنى ضريع ولا مهل
ومن أهلها العاصى أوامر ربه وإنى لها أو يغفر الله لى أهل
أما إننى أرجو النجاة وإن تكن ذنوبى حملا لا يطاق لها حمل
فإنى قد أعددت أى ذخيرةٍ تخفف من ثقل الذنوب فلا ثقل
هواك الذى للمعضلات خبأته فمن مهجتى حق ومن غيرتى قفل
ألا هكذا فليخبإ الحب مدنف إذا ما سلا أهل المحبة لا يسلو
وإن يخل معمور القلوب من الهوى فما قلبه المعمور من حبه يخلو
وإن يعتلل وقتا غرام فيختلل فما حبه يعتل وقتا فيختل
فكم بين من قد تيم الفضل والعلا وبين الذى قد تيم الغنج والدل
لبينهما ما بين وصل وقطعة وهيهات ما بالقطع يشتبه الوصل

(١) هذا هو الصواب، والذى فى المطبوع: «أحجف» بتقديم الحاء على الجيم.
(٢) هذا هو الصواب، والذى فى المطبوع: «يا حزرى» بتقديم الزاى على الراء.

وإن غرست كـفهما شجـر الهوى فمغروس ذا شـرى ومغروس ذا نخل

فـيـــا قلبى احلل من هـواك بجنةٍ بهـا أحتـل قلب حبـه ليس يعـتل

وناد الورى إنـى احـــتللت بـجنة بها كل من يهـوى هواى سيـحتل

أدير بهـا كأسـا دهاقًـا وما سـوى سـرورى بمحبـوبى مـدام ولا نقل

هى الخمر لم يتلف بهـا عقل شاربٍ وتلك حرام فى الـكتاب وذى حل

ويا فكـرى الرامى المصـــيب بنـبله مـقـــاتل أغـراض أراها لـه النبل

وفى قـتلهـا عند اللبـيب حيـاتهـا ومن أعجب الأشيـاء أن يحيى القتل

بتأليف شمل المدح فى المصطفى اشتغل يعنك على تـأليـفـه ذلك الشـمل

فـــذاك مـــحل للمـــدائح قـــابل إذا انحصـرت فيه مـدائح من قبل

مـحل يسـمى فى عـلاه مقـصـرًا أديب وفى الأمداح من طبـعه يغلو

محل عـلا فوق السـماء ولم يكن لأعلى مـحل ذلك العـلو أن يعلو

فقل للأديب المكثر القول فى حلى علاه: كـثيـر القول فى مـجده قل

فـضـائله بحـــر وسـجل كـلامنا وليس يغيض البحر دلو ولا سجل

وتالله ما البـحر الغطامط مـشبـها فـضـائله أو يشـــبـه الوابل الطل

ولكنهـا الأمـثـال تضـرب للورى وليس من المشروط أن يـفعل الكل

وقـــد ضـــرب الله الأقل لـنوره فـقـال كـمـشكاةٍ ولـيس له مـثل

أخـيـر رسـول جاء لـلخلق هاديًا وقد درست سبل النجـاة فلا سبل

وكلهم نشـوان من خـمرة الهـوى فـمعـبودهم نسـر ومدعـوهم بعل

فـمـــا منهم إلاّ أسـيـــر ضـلالةٍ ... فـفى جـيـده غل وفى رجله كـبل

فـدلوا عـلى سـبل النجـــاة بنوره ... جـمـيـعا ولولا ذلك النور مـا دلوا

فـأعـقب ذاك النور مـــدلوله حلى ... ففى جيده عـقد وفى رجله حجل

وقـفت بـبـاب الجـود والكرم الذى ... غـمـامتـه وطفـا وعـارضـه وبل

فـمـا كرم يروق عن الجـود واهبـا ... مـــواهبـــه تتـــرى ونائله جـــزل

وقـــيس بذا إلاّ وقـال أولـو النهى ... ألا إنَّ ذاك الجود فى جنب ذا بخل

ولى حاجـة عنت إليك، قـضاؤها ... عليك بفـضل الله يا سيـدى سهل

زيارة أرض طـيب الله تـربهـــــا ... فما المسك مفضوض الختام لها شكل

هى البـلدة الغـــراء طيـــبـــة التى ... بها ديم الرحـمى مدى الدهر تنهل

فمن حل مـثوى أنت فـيه مـخيم ... ويا طيب أقـوام بطيـبـة قـد حلوا

يكن آمنا من كـل حزن وخـيـفـة ... ويعـظم له جـــاه ويكرم لـه نزل

فمـا داخل عدنا يخـاف من الردى ... وتشـهـد آيات الكتـاب الذى نتلو

ولا فـرق مـــا بين الجنان وبيـنهـا ... لدى من له عقل من الناس أو نقل

وصلى عليك الله مـا هبت الصبـا ... وما كان للمُزْنِ التى أعصرت هطل

***

ومما له أيضًا رحمه [الله]، ملتزما تشبيه النعل المختصة بالشرف والرفعة، وقد أبصرها مرسومة بالحبر فى رقعة:

اشـفى برؤيتـهـا يا نفـسى الدنفـه ... نعـلا لرجل رسـول الله مـكتنفـهْ

كأنَّ طـرسا به بالحـبر قد رسـمت برد من الحـبرات البيض ذو صَـنِفَهْ

ومما له أيضًا نفعه الله بها، ورسم مثال النعل الكريمة إثرها:

يا سـائلا أفـتيـه إثر سـؤاله عـمـا يرى إن يشك مـن إشكاله
تُرِهِ سـواد القلب والـعـينـين فى شكـل هلال الأفـق من أشـكالـه
أخطأت لست بعـائد ولكم مصـيـ ـب مخطئٌ فى البـعض من أقواله
فـالبدر يكسـف فى منازل سعـده ويصـيـبـه النقـصـان إثر كـمـاله
وكـلاهمـا شـين وهذا قـد وقى من كل شـين بـدر سـر جـمـاله
أو ليس تمثـال النعـال نـعـال من وطئ السـمـوات الـعلى بنعـاله
نعل بـلابسـهـا بـأت ويحق أن تبـأى بـه لجـلالـه وخـلاله
فلقد حوت رجلاً مـشت بالصفوة المـ ـخـتـار عنـد الله من أرسـاله
فـالثـمـه تمثـالا لهـا لثم امـرئ باللـثم يروى من صـدى بلبـاله
فلرب مـشـتـاق رأى آثار من يشـتـاقـه فـشـفـتـه من أوجـاله
أو ما ترى يعـقوب عـاد بثوب من يهـوى سـنى عـينيـه بـعـد زواله
وهوى فى مولاى يفـضل حب يعـ ـقـوب على المروى من أحـواله
فمحـمد هو معتـقى من ملك شر كٍ كنت طوع يـمـينـه وشـمـاله
قطعت هـدايتـه حـبـال ضـالتى بحـسامـها الجـالى الردى بصقـاله
فغـدوت معتـقلا ورحت مسـرحًا مـتـمـسكا مـن هديه بحـبـاله
يرتاح فى عـدن الهـدى قلبى ولا يخشى الإعـادة من جحـيم ضلاله

أصل النداء معرفا بعوارفٍ ... بلغ الفؤاد بها مدى آماله

يا قوم إقرار أمرى بفضائلٍ ... عظمت على لأحمد ولآله

كنت الذليل فمذ تملك مجده ... نفسى بما قد كان من إفضاله

ما زال يسعى فى عزازة عبده ... حتى محا بالعز نقطة ذاله

فأنا الدليل لأعبدٍ ذلوا على ... أنَّ يصبحوا مثلى عبيد جلاله

مولاى يا مولاى ألفا مردفا ... بمثاله ومثاله ومثاله

أضعاف أضعافِ الذى فى البحر من ... نقطٍ: أجاج الماء أو سلساله

أنا عبدك القن الذى أطلقته ... من جهل أوثق مهجتى بعقاله

فبما على لكم من الفضل الذى ... ضعفت قوى شكرى عن استقلاله

إلاّ حملت إلى الأساة بطيبة ... جسما سكا بفراق قلب واله

وأظنه والظن يصدق هاهنا ... عندى وإنى للخبير بحاله

قد حل من فلك العلى الحلى ... شهب تحف بشمسه وهلاله

بلدًا يذود المارقين جلاله ... بسيوفه ولدانه ونباله

فكأنه كير نفى خَبَثًا[1] وأبـ ... ـقى من رضى الرحمن باستعماله

أربى على أمثاله ووحقه ... لأفكت فى قولى على أمثاله

فالأرض مثل ذبالة وهو السنى ... منها وكم بين السنى وذباله

هو طيبة الغراء أشرف موطن ... حث النهى شرعا على إجلاله

حرم متى ما حله ذو خيفةٍ ... يأمن به فى حاله ومآله

(١) هذا هو الصواب، والذى فى المطبوع: «خبشا» بالشين المهملة. والخَبَثُ ما ينفيه الكِيرُ من الحديد ونحوه عند إحمائه وطرقه. وفى الحديث: «إنّ الحُمَّى تنفى الذنوب كما ينفِى الكِيرُ الخَبَثَ».

أمـــر الملائك بالـدعـــاء لأهـله أهل الفـــخـار نـسـائه ورجـــاله

وأرى ثراه مـن لأجل سناه خـــر الملك للـمـخلـوق من صلصـــاله

ونجا ابن لامك فى السفين إذ استوى مـاء الـردى بسـهـــوله وجـبـــاله

ونجا ابن آرز من لـظى الإشراك إذ نال الـذى قـــد نال مـن تمثـــاله

وفـدى ابن هاجـــر حـين تل وإنَّه لمسـلم لأبيـــه فـى أفـــعـــاله

واحـتل إدريس مكـانًا فى السـمـا أســمى، مـنال النجم دون مـناله

والمرء يخلق من ثرى القـبـر الذى سـيكون مـنطبـقـا علـى أوصـاله

هذا حـديث صـح عنه لدى الألى نظمـوا عـقـود مـــقـاله وفـعـاله

ولذلك قـال بفـضل طيبـة مـالك وهو الإمـــام المقـــتـدى بمقـــاله

إذ لا تراب أجل مـن تراب نشـــا منه حـــبـــيب الله من أرســـاله

فنهاك يضـحى الجسم متـصلا بمن أشـجـاه وهو القلب يوم فـصـاله

أسـعـد بمجـتمـعـين فى دار بهـا شـخص الذى قنعا بـطيف خيـاله

مـولاى إن لم تُؤْتِ عـبدك سـؤله ورددت خـــائبـةً يمـــين ســـؤاله

لا عتب بل عـتبى فمـا هو صالح بك للذى قـد ســاء من أعـمـاله

لكن سنـة سـيـــدى فى عـبـــده إســـعـافـــه مـا دام من ســـؤاله

والصـــفح عن زلاته ولَوَ انـهـــا كـالرمل عـدا فى جـمـيع رمـاله

ومـــتى يجـد فـــالغـــيث إلاّ أنه عم الخـليـقـــة كلـهـــا بنـواله

ومـــتى يـجـــر فـــاللـيث إلاّ إنّه يضـحى المجـار لديه من أشـبـاله

فالخائفون المعسرون مؤمنو ن وموسرون بجاهه وبماله
هذى خصال من خصال جمة ومن الذى يحصى شريف خصاله
صلى عليه إلهنا من مرسل وجد الوجود الخير فى إرساله

***

ومما له أيضًا تقبل الله منه، ولا صرف وجه وقايته بمنه وكرمه عنه:

خذه أيا صاح خذ تمثال نعل قد حذى
على نعال أحمدٍ منجى الأنام المنقذ
السيد المختار من قبيلة وفخذ
ذى الطول ذى الفضل الذى حلاه لا تحصى بذى
وانظر إليه نظرة يجلى بها طرف قذى
وقبلنه دائما تقبيل ذى تلذذ
وقل إذا قبلته ذى قبل تلذذ
وناده يا سيدًا بغيره لم ألذ
شكوى محب ما درى غير الهوى من مأخذ
رمى بنبل للنوى صوائب لم تشحذ
لكنها مهما رمى بها قُلَيْبِى[1] تنفذ
فقلبه من رشقها كمثل جلد القنفذ
وقد رجوت والرجا نهجى الذى قد أحتذى

(١) هذا الصواب من سائر النسخ، والذى فى المطبوع: «فليس».

إدالتى بالقرب من هذا النوى المستحوذ
وبالجلال النبوى الهاشمى تعوذى
من أنْ يضيع لى هوى به فؤادى يغتذى
فيا فؤادى بالعرا أفعى المخافة انبذ
وإنْ تشر[1] للسع من زمرد الدجى خذ
وأره لمقلَتَيْ ها كى تسيل ذى وذى
فذاك من الأفاعى من عوائد الزمرذ

***

ومما له أيضًا رحمه الله تعالى:

يا مغرما برسول لك يخلق الله مثله
هذا مثال نعال شراكها ضم رجله
أشرف بها ثم أشرف نعلا تماثل نعله
فَقَبِّلَنْ فيه مثلى تقبيل صب موله
لرب شاكى اشتياقٍ نال الشفاء بقبله
يا رب أشكوك شوقى والشوق أعضل عله
فقرب الدار ممن أبنت فى الرسل فضله
فهو الذى بنواه فؤاد عبدك وله
صلى الإله عليه من شارع خير قبله

(١) هذا هو الأنسب، والذى فى المطبوع: «تسر» بالسين المهملة.

وفـــــاسخ كـل حكـم ونـاسـخ كـــل مـلـهْ
مـا حـرك الوجـد قلبـا وأرق البـعـد مـقـلهْ

***

ومما له أيضًا تقبل الله عمله، وبلغه أمله:

انـــظـــر إلـــى هـــلالا فـــاق البـدور جـمـالا
أسـتـــغـفـــر الله ربى فـقـد أفكـت مـقـالا
فـالمحق ليس مـصـيـبى وقـد يـصـيب الـهـلالا
لكـن حكـيت نـعـــالا لسـيـد قـد تعـالى
شـأى النبـيـين جـاها وحـظـوة وخـــلالا
فـإن شـكوت بـشـوق فـــؤادك الـصب نـالا
فلـتلثـمنـى فلثـمى يشـفـى اشـتـيـاقـا توالى
نعم لـثـمـتك شـوقـا لمـا حكـيت الـنعـالا
ومـن يـظـن بـنـعـل شـغـفت ظن المحـالا
بـلابـس الـنـعـل هـمـنـا ومنـه نبـغى الـوصـالا
يـا رب يـشـكـوك قـلـبـى يـشكـوك صـادا ودالا
فـقـرب الـدار ممن بـرأت فـاء وذالا
فـمـا لأحـمـد ندرى فى المـرسلين مـثـالا
هـذا وإنْ كـان مـنهـم والكـل حـاز الـكمـالا

فـفى الـسـمـا نيـراب وكـلهـا يتـلالا

وليـس منهـا مـضـاه للـشـمس فى الـنور لالا

صـلى عـلـيـه إلـه بـه أزال الـضـلالا

مـا لحق الجـزم فـعـلا أو لزم الـنصـب حـالا

ثم سـلام عـبـيـد مـا إنْ عن الرق حـالا

يخص مـولى كـريـمـا عم الـعـبـيـد نوالا

وآلـه خـيـر آل إنْ عـدد الخـلـق آلا

مـا أطـلع الأفق شـمـسـا وأنـشـأ الجـو آلا

***

ومن قوله أيضًا رحمه الله وهى من أول ما قاله:

بكيت وقـد رأيت مـثـال نعله بكـاء هو عن الأحـبـاب وُلِّهْ

ومـا حب النعـال أسـال دمـعى ولكن حـب من كـرمت بـرجله

مـحـمّـدا الرفـيع القـدر أعنى حـبـيب الله أحـمـد خـيـر رسله

عليـه السـلام ذى مـقـة مـشـوق إليـه ظل مـعـتـصـمـا بـحـبله

مـدى افتـخـرت سمـوات وأرض على حـر الخـدود بوطء نـعله

***

وله رحمه الله قصيدة مطولة، نحا بها منحى رائية أبى الربيع بن سالم، وهى:

تبـــدت لنا والشـوق يقـــدح زنده بقلب شج لا وجـد يشـبه وجـده
نعـال رسول الله أشـرف بنعل من قد اختص بين الرسل بالسر وحده
وإلاّ تكن نعـل الرسـول فـإنـهـا مـــثـــال وكم نِدٍّ يـذكِّـــر نِدَّه
فـيا ناظرا منهـا حـديقا تعـاهدت عـهـاد الحـيـا تروى رباه ووهده
فلله مـــا أذكى وأطيـب نفـحـــه إذا حـركـت ريح الصـبـــابة رنده
وأطلع شـــوق الحب بدرا بهـــاره وشمسا تروم الغروب فى الصيف ورده
على الفور قـبل فيـه تقبيل فـاخر بمولى أعـز الله فى الخـلق عـبـده
ونزه به طرفـا جـفـــا النوم جـفنه ومـرغ به خـدا دم الجـــفن خـده
فـــربت ذى وجـــد رأى أثرا لمن له وجـده يـومـا فـأطفـــأ وجـده
أمـولاى يا أعـلى النبيـــين منزلا لدى الله والمخـتص بالفـضل عنده
نداء عـبيـد أضـرم الشوق وجـده فـباح بـحب أبرم الصـدق عقـده
وإن الهـوى مـالم يـبن لكخـمـرة بعـنقـــود والـســـقـط لازم زنده
بحق هواى المحض فيك الذى متى يقس بهوى فى الـدهر ألفى وحده
أنلى مـــا أبغـــيـــه منـك وإنَّه زيارة قـــبـــر شـــرف الله لحـــده
بأشرف جـثمـان لأشرف روح من وقى الله مما يوهن المجـــد مـجـده
هو المجـد لا مـجـد يمـاثله وهل يماثل صفح السـيف فى القطع حده
سكرت وما خمرى سوى حبه ومن حسا خـمر هذا الحب لم يخش حده
فـيـا طيـبـة الغـراء أسـعـد منزل تود الـنجـــوم الزهر تنـزل وهده

أَلاَ فاحملى بند الفخار وحققى ... بأنك قد شرفت بالحمل بنده
ونوطى على جيد العلا عقده ترى ... مشرفة أيضًا بذلك عقده
بأعضاء مختار من الخلق مرسل ... إليهم بدين أوثق الله عهده
به نسخت أديان من كان قبله ... ولا دين يأتى الخلق للحشر بعده
به شاد أبراج العلا الله ربه ... وثل به عرش الضلال وهده
ورد به عنا الردى وهو مقبل ... وما كان لولا جاهه ليرده
رسول على الأرسال فضله الذى ... حباه بما لا يبلغ النطق عده
وإنْ كان رسل الله صلى عليهم ... وسلم ما ضد ينافر ضده
حكوا سور القرآن نورا وحكمة ... فأحمد قد أضحى من الرسل حمده
وفى الحمد ما فيها من الشرف الذى ... يبين لمهدى من الناس رشده
وحسبك أنْ يبدا ويختم قارئ ... بها ومصل فرضه ثم ورده
كذاك رسول الله أول آخر ... له المنزل الأعلى الذى لن نحده
أمولاى ذا قصدى إليك وأنت من ... يبلغ ذا الشوق المبرح قصده
فيا طيب عبد واصل أرض طيبة ... يمرغ فى تلك المعاهد خده
معاهد أَمْسَى الأنس منها بظهرها ... لذى وحشة قد قرب الله بعده
وأصبح منقولا إلى بطنها فيا ... وجاهة بطن قد وعاه وسعده
سعيد صعيد منه أنشى أحمد ... وفيه الذى أنشا به الفضل رده
فكان كمثل الورد فارق ورده ... لمنفعة ما ثم عاود ورده

أخـــير كـــريم ليس تطرق آفـــة فـتـى حـبـــه للطارقـــات أعـده
عليك وأنـت السـيـد الـعلم الذى أفـاد الثنا فهـر[1] السنى ومـعده
بل العـالم الإنسى عـمومـا ومنهم خـصوصـا فـريق أكمل الله جـده
هى الأمـة العليـا التى هديت ومن أريد به خـيـــر من الخلق يهـــده
صلاة وتسليم ورُحْمَى مدى انتمى لك الفـضل يَا فَـذَّ الوجود وفـرده
عـديد صنوف الخلق علوا وأسفـلا صـموتا وذا نطاق جـمادا وضـده
ولست مجـيزا أنْ أضـيف إلى كذا بعـدى فـيـأتى مـا لسـانى حـده
كشمس الضحى كالمسك كالقطر لم ينط به برقـه الأفق الـصـقـيل ورعـده
أجـاعل تشبـيهى حـقيـقة التـفت غلطـت فللبـــاب المجـــازى رده
فشمس الضـحى المسك والقطر عابها أخو النـقد والبرهـان يعضد نـقده
بكسـف وإمـســـاك وهذا دلـيله على ذاك الإيـضـاح لم يـتـعـــده
وتلك التى شبـهتهـا سلمت سنى فـجاءت كـمـا شاء الكمـال ووده
صلاة وتسليمـا ورحمى على الذى سنى وحى ذى العرش المجيد أمده
على العروة الوثقى على القـمر الذى على الخلق ظـل الأمن والمن مـده
على منقذ الإنسـان من حفر الردى ولولا سناه كـــان فـيـهـــا يُدَهْدَهُ
على من له الخلق الـعظيم على الذى أبان جـميع الرسل والكتب جـده
على من له المجد الصميم على الذى به شـــرف الـرحـــمن آدم جـــده
على أحـمد المعروف فـى ظهر آدم بتـــرديده شـكر الإله وحـــمـــده

(١) هذا الصواب من سائر الأصول، والذى فى المطبـوع: «بهر» وهو يعنى بذلك فهراً، وهو أنسب لمعد، فكلاهما من أجداده ﷺ.

على مـجـتـبى قـد نور الله قلبـه على مـصطفى قـد طهـر الله برده

* * *

له المعجـزات اللاّءِ لحن لطرف من نفى نومـه سـعـد وأثبت سـهـده
فـمنهـا انشـقـاق البـدر ثم نزوله رآه الذى التـوفـيق وافـق رصـده
ومنها حـنين الجذع بالمسـجد الذى بطيـبـة لما آنـس الجـذع فـقـده
ومنهـا طلوع القـرص بعد غـروبه وما بـسوى دعوى دعـاها اسـترده
ومنها سقوط السيف من كف غورث وقـد كان مـقـدام الضلال ونجـده
ومنهـا انفـجـار المـاء من بين أنمل تقـسم فـى أبناء آدم رفـده
إلى أنْ روى منه الخـمـيس فيـا له خميـسا أطاب الله ذو الفضل ورده
ومنهـا نماء التـمر حـتى قـضى به ديون أبيـه جـابر حـين جـده
ومنها كـلام الشاة تنهى عـن أكلها فلم يبلغ السـمـام بالسم قـصـده
ومنهـا كلام الضب والجـمل الذى شكا كـده الموهـى قـواه وجلده
وكـيف مـواليـه يريـدون نَحْـرَهُ ولما يرعـوا فـيـه بالأمس كـده
ومنها البـعيـر المبطئ السيـر ساطه فما وخدت من بعد ذا النجب وخده
إلى غـيـرها من معـجـزات بواهر فـضحن عـدوا باغيـا رام جحـده
تكاثر رمل الأرض عـدا ونبـتـهـا وتفضـل سلك الدر حسنا وعـقده
وتزرى سنـى بالنيـرين توصـلا من الفلك المجلو بالصـحـو كبـده

* * *

ومما به قد خصه الله رحمة ... وفضلا وفخرا قد قضى الله خلده

صحابته الغر الألى سعدوا ففى ... قلوبهم قد أسكن الله وده

هم نصروا دين الهدى بسيوفهم ... كما خذلوا نسر الضلال ووده

وأولهم سبقا وحيدهم حلى ... وأوجههم عند الإله وعنده

مقربه محبوبه مصطفاه من ... جميعهم لا خلق يعلم نده

خليفته فى المسلمين الذى له ... مناقب عود الطيب تنسى وندة

ميمم ضلال اليمامة غازيا ... ليروى دما قضب الحديد وملده

فما سلم الكذاب منها رئيسهم ... مسيلم خنزير الضلال وقرده

أقاويله الزورية اللاء قد دجت ... ورأس الدجى لا شك بالنور يشده

مقاتل أهل الردة الرجس الألى ... نحو سد باب حرم الله سده

أبو بكر الصديق أصدق صاحب ... وأبدلهم فى نصرة الدين جهده

* * *

وثانيهم الموصوف بالشدة التى ... بها دينه قوى الإله وشده

ملاقى خطوب الدهر منه بعزمة ... تحل من الخطب الكريه أشده

مكسر كسرى الفرس واضع تاجه ... مُقلبه بالعود يُظهر زُهده

مُقصر أعمار القياصر بالقنا ... مددن وبالصمصام مزق غمده

مواصل أسباب الهدى الندس الذى ... عن الحق ما شىء من الدهر صده

أميرهم فاروقهم عمر الذى ... مدى العمر لم يفرق من الأمر آده

وثالثهم ذو الهجرتين الفتى الذى شكا هجره شخص النعيم وصده
مجمع ما فى الذكر من سور ومن متى رد داع قد دعا يرده
مجهز جيش العسرة الفاضل الذى تردى رداء غيره لم يرده
فذلك عثمان الشهيد بداره بسيف شقى فى لظى يتدهده
أبو عمرو المعمور قلبا بذكر من له من ضروب الصخر أنطق صلده
فسبحت الحصباء فى كفه كما أتى فى حديث أكثر الناس سرده

***

ورابعهم من ألبسته يد العلا أجل قميص للعلا وأجده
ووشحه إيمانه وجنانه أجذ حسام للطلى وأحده
تسمى لتفريق الفقار به بذى الْـ فقار فما أفرى وأقطع حده
هو السيف لم تجل الصياقل صفحه ولا رقمت أيدى القيون فرنده
تزوج بنت الموت بكرا صداقها أجل صداق أحكم الحب عقده
وليس سوى الأرواح أشركن بالذى براهن ما أكلا وعجل نقده
ومن جنة الفردوس كان خروجه لهذى وتلك الدار كانت مرده
فيا عظم ما أبلى به فى مواطن تشيب رأس الطفل لم يعد مهده
إمام همام قاسر كل قسور ومدركه لو كانت الريح نهده
به فتح الرحمن خَيْبَرَ عنوة وسد به ما قبله لم يسده
وكان رسول الله قال لأعطين غدا راية الفتح المبين وبنده

فـــــتى وده خـــــلاقـــــه وأوده ... كـــمـــا ودنا والله ينـصـــر وده

فلم يك يـعطاها ســـواه كـرامـــة ... بها اختصه من شد بالعضد عضده

وقد كـان مشـدود المحاجـر أرمدا ... فـفـتح ريق الحب مـا الداء سـده

فهب هبـوب الريح قسور جـحفل ... تولى بـه رب البـــرية عـــضـــده

وبالباب باب الحـصن يسراه ترست ... فللـه منه قـــســـور مـــا أشـــده

هو الآية العظمـى التى طفـئت به ... من الكفر ما قد أضرم الجهل وقده

ومن كـان مـولاه الـرسـول فـإنه ... كـــذلك مـولاه فطـوباك عـبـــده

أبوه الـذى ربى الـنبـى ولم يـزل ... له حامـيا فى السـر والجهر جـهده

متى خـاصمت فـيه قريش تـلقهم ... خـصم اللسـان الـهـاشـمى ملده

ومن قـــوله فـــيـــه يعظم شـــأنه ... وينشـر مـا الرحمـن أودع مجـده

وأبيض يسـتسـقى الغمـام بوجهـه ... ثمـال يـتـيم كـدر اليـــتـيم ورده

فيـاحسرتا إنْ مـات لم يجن زهرة ... قـد ابـرزها الإيمـان بـالله وحـده

ولكنـهـا الأقـــدار تـنفـــذ بالذى ... نود وقـــــد تجـــرى بما لـن نوده

فـينأى الذى أدنى ويدنى الذى نآى ... وكل بعلم يجـهل العـبـد قصـده

ونجلاه سبطا المصطـفى السيدان من ... بنى المجـد لا ضـيـم ينال مـعـده

جـبيـباه فى الـدارين ريحانتـاه لم ... يزل منهـمـا يـسـتنشق الورد ورده

وأمـهـمـا من أحـمد بـضعـة ومن ... يكن من رسـول الله جـزءا يمـده

أفـاطم لم يبلغ نصـيـفك فـاضل ... من الخلق لم يبلغ أولو الفضل مده

فيا صـاح قل لا مجد يشبـه مجده وصـوتك مهـمـا قلت لا فلتمـده
أبو الحسن الأسـمى على العلا الذى مو البـحر لم يدرك يد الجـزر مده

* * *

وخامسـهم بحر الندى الأسد الذى يبـذ لـيـوث البـاس أيـدا وأسـده
مـفـدى رسـول الله بالوالدين إذ مـلا قلبـه المغـسول بردا وكـبـده
وبشـر من قد حـز بالسيف رأسـه لئـيـم زمـان كـان فـيـه ووغـده
بنار لهـا غـيض على كـل قـاتل فـمـا أردى وأشـأم عـمـده
حـواريه من قـد حـوى زيه سنى سنى العـلم بالرحـمن كـان ممده
أبو عـابد الله الزبيـر الذى امـتطى مطهـمـة المجـد الأثيـل وجـرده

* * *

وسادسهم ذو الجـود والسودد الذى يعد الصـدى اللهفان للغـوث عده
مـوقى رسول الله بالكف جـودها يحل مـن العـيش المهـنا رغـده
فشلت وقد سلت مـن الهند مرهفا محلى صـقيلا أكسب الفـخر هنده
فطوبى لهـا يمنى جنت ثمـر المنى وقـد حلـيت قلب النعـيم وقلده
فقل طلحـة ذو المجد طلح ثنائه[1] لسـان بيـان الشـرع أحكم نضـده

* * *

وسابعهم ذو الفـضل أقصد سالك أدل طريـق للهـدى وأسـده
ومـفـرغ قطر الزهد يجـعـل بينه ومـا بين يأجـوج الزخـارف سـده

(١) هذا الصواب من سائر النسخ، وفى المطبوع: «ثقاية».

أمـير أولـى الإيمان عـامـرهم أبو عـبـيدة ذو الخـيـر الذى لن نعـده

* * *

وثامنهم ذو المجد فـى المال والتقى فللـه مـا أجـدى وأبرك وجـده
مـلا ذكـره بطن الـسـمـاء ومـاله ملا بطن هذى الأرض غورا ونجده
وكم بات لم يطعم وأطعـم غيـره وقـام ولم يتـرك من الجـوع ورده
مـعـمم خيـر الرسل فـاتح دومـة كـمـا ود خـيـر المـرسلين ووده
فذاك ابن عـوف مقلة المجـد طرفه أجل فـتى يثـنى عليـه ويمـده

* * *

وتاسـعهم ذو الرمى بالنبل والدعـا فمن يـرم من قوس وفيـه يَؤُدُّه[1]
له السيـرة الحسنى له النـجدة التى رمت فارس الكفـر الصراح وكرده
فعوضـهم من عيشهم واعـتزازهم بموت وذل يـعـذب الموت عـنده
فكم فرس قد راح أشهب واغتدى من الدم يحكى أشـقـر اللون ورده
وكم فـارس من فـارس بشـمـاله عنان فـقـدت منه يمـناه نَدّه[2]
فـيـا بن أبـى العـاص انك واقص من الكفـر جيـلا أوجب الله طرده
ويا سعد يا خـال النبى لقد سمت فـروع نجـار ثابت كنت سـعـده

* * *

وعاشرهم ذو النسك كالمسك ذكره سـعيـد ولا سعـد يمـاثل سعـده
فتى المكرمـات الأكرم الماجد الذى يزيزن جـمع المجـد طـرا ووفـده

(١) هذا الصواب من سائر النسخ، والذى فى المطبوع: «يوده».
(٢) هذا الصواب من سائر النسخ، والذى فى المطبوع: «قده».

سلالة زيد الفجر أرشد مهتد عن الشرك جد سابق قد أصده

قال رسول الله ﷺ:

يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده.

* * *

ومما به أيضًا حبا الله أحمدا وعزز ذا الدين العزيز وجنده

ذوو المجد عماه وجعفر الذى ملائكة الرضوان وارته لحده

فحمزة ليث الله لا ليث غابة يصادره إنْ هاجت الحرب حرده

له الفتكات البيض سودت العدا وزادت سنى بدر الجهاد وأحده

وكان إذا ما قارب الطرف وامتطى قراه بريش الرأل يعلم برده

ولا برد إلاّ نثرة عربية لأمثالها داود قدر سرده

فيرعد منه القرن حتى كأنما به نافض قد قرب الروع ورده

إلى أنْ أراد الله منه شهادة تبوئه عدن الجزاء وخلده

على يد أشقى الزنج راميه قدرة بحربته شل المهيمن زنده

فنادى الذى قد ألحف الذنب قلبه بأسود مما ألحف الرب جلده

بقتلك يا وحشى سامى سامها أصاب سواد الجلد حاما وولده

* * *

وعباس العم الأعم مكارما تقصر من فخر الكرام أمده

أبو الخلفا ساقى الحجيج أجل من به يصرف الصرف الجليل ويندى

(١) الذى فى المطبوع: «جرده» بالجيم، والمثبت من سائر الأصول وهو أنسب.

وجعفر الطيار ذو المشهد الذى ملائكة الرحمى غدت فيه شهده
محمر رايات الهدى بدم العدا بنى الأصفر الأسد الألى لم يدهدهوا
مقدم يمناه ويسراه قربة إلى منزل فى دار عدن أعده
وأمسك بالعضدين بعدهما اللوا لواء الهدى يبغى من الله عضده

* * *

وبعدهم الأنصار والكل أنجم قد أطلعها مولاه تكلأ مجده
بهم خضد الإشراك شرقا ومغربا ولولاه ما كان أعوص خضده
ذوابلهم قضبان بان نواعم قَدَ انْبتن سوسان الحديد ووردە
تصيب قلوب الشرك طعنا كأنها يحب القضا الجارى فتقصد قصده
وإلاّ فبين الشرك حقد وبينها فتطلب منه موضعا ضم حقده
وأسيافهم زرق رقاق كأنها نطاف بها قد عين الموت ورده
ذكور ويعروها المحيض كأنها إناث ولا غسل عليهن بعده
فيا معشر السادات والكل منكم يرى الصبر فى نصر الهدى هو شهده
كأن عداة الدين زرع محطم توليتم بالبيض والسمر حصده
فأقررتم عين الرسول وحسبكم بذا قرة تهدى إلى الطرف برده

* * *

ولله من أزواجه أمهاتنا فرائد علاء قَد اشْرِبْنَ وده
وأكرمهن الدرة الفذة التى بها زين المجد المؤثل عقده

خديجة ذات الجاه إنْ ينشد امرؤ به الله فى أمر تقبل نشده
لها الأَثَرُ المحمود والأُثَرُ التى متى مر عرف الطيب عنه ترده
بنو المصطفى ما دون إبراهيم الذى رداه رداء الصبر بالثكل قده
بنوها وكل أشمس وأهلة كوامل رسم الفخر حازوا وحده
وفيها رسول الله قال مكرما خليلتها والدمع يخضل خده
ألا إنها كانت تزور خديجة ومن خلق ذى الإيمان يحفظ عهده
فبشرها جبريل عن ربها بما لها الله فى دار النعيم أعده

* * *

وعائشة بنت الحبيب عتيق الـ ـمصدق إيعاد الرسول ووعده
فريدة نسوان الوجود مناقبا متى يبل ذكر صالح تستجده
عليمة أهل العلم التى جلت سدف الجهل المضل وسده

* * *

وحفصة ذات الصيت والمنصب الذى هو الطود لا ترقى السوابق مهده
مواصلة الأوراد والصوم دائما مواصلة القلب الموحد عقده

* * *

وفذة مخزوم جلالا مبلغا قصى المنى فى المنزلين معده

* * *

وزينب ذات الطول والطول أثملا مواهبها تنسى الغمام وعهده

وزينب ذات الفـضل بنت خزيمـة لقد وصلت بالجود مـا البخل جده

***

وسودة ذات السـودد العد والتـقى متى صد عن قلب تقى لم يَصُدَّهُو

***

ومـيـمـونة الميـمـــونة البـرة التى لها الفضل لـم ترق الفواضل نجده

***

وبنت حُـيَىٍّ ربة الصـون والحـيـا صفـية من أصـفى لها السـعد وده

***

ورملة رمـل الأرض يمكن عـــده لنا والـذى خـصـت به لن نعـــده

***

وجـــارية العلـيـا جـــويريـة التى تقـد سنـامـا أختـهـــا لم تقـده

هنا منتهـى الأزواج والكل أشمس سناها أســداف الجـهـالـة يشـده

***

ومـــــا رِئَ من تِرْب لمـارية الـتى هواها له لا صـرد يشـبـه صـرده

ســـــرية ســـــريـاته أى مـنزل يرقى من الـطود الفـخـــارى فنده

فـسـرية الإنسان تـسمـو بمن لهـا تســرى وهذا المجـد تعلـم جـده

وإنْ لم تكن أمـا لـنا فـهى أم من لفـقـدانه أبدى حـبـيـبك وحـده

***

حبيبى حبيبى فطرة وشريعة قَدَ احْكمتا من حبل حبى مسده
مدحتك والأزواج والصحب والألى بقربك شهب الفخر أجروا ووردوه
فعاد مجلى كل فخر قدامس سكيتا تولى القرد بالسوط جلده
هو المدح ما كررته زاد طيبه فينسى مشور الأرى طعما وقنده
فصله أيا فكرى لعلك بالغ من البحر ذى الماء الروى العذب ثمده
ولازم جناب المجد ذا المجد مادحا ودع جانبا هند الجمال ودعده
ولا تطلبى يا نفس غير شفاعة ووصل كريم لا أحاذر صده
وعافية شهبانها كلما عرا بلاء تولت عن جنابى لهده
وقمع عداة لم يخافوا إلههم فباروا ذئاب الفقر ضرا وعقده
مذاهبهم ظلم العباد فإن يقل لهم ناصح كفوا عن الظلم يزدهوا
وعبدك بالإيثار دان فلم يكن ليختص دون الغير بالخير وحده
فعم بهذا الخير كل موحد هواك لديه خير علق أعده
وسلم رب العرش بدءا وعودة عليك أيا فَذَّ الوجود وفرده
سلاما أيضًا هى هدى من قد ذكرته وتصلية جاءت كذلك بعده

* * *

انتهى ما أردت جلبه من كلام هذا الإمام فى تمثال نعل المصطفى عليه الصلاة السلام.

* * *

قلت: وقد اعتنى الناس والأئمة بتمثال النعل الكريمة، وكيف لا، وحُقّ على كل مؤمن أنْ يفلى لمشاهدته الفلا، فإذا شاهدها قبلها ألفا وألفا، وتوسل بصاحبها إلى الله الكريم زلفى، ولثم ثراها لثما، وأزاح به عن نفسه حوبا وإثما، وجعلها فوق رأسه تاجا، واستغنى بالتوسل بمن لبسها فلم يك إلى غابر الدهر محتاجا. وقد أفردها أبو اليمن بن عساكر بالتأليف وصنف فيها جزءا مفردا، وكذلك أفردا بالتأليف أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن خلف السلمى الشهير بابن الحاج من أهل أَلْمَرِيَّةَ وكذا غيرهما.

ومن بعض ما ذكر فى فضلها، وجرب من نفعها وبركتها، ما ذكره أبو جعفر أحمد بن عبد المجيد، وكان شيخا صالحا ورعا قال: حذوت هذا المثال لبعض الطلبة، فجاءنى يوما فقال لى: رأيت البارحة من بركة هذه النعل عجبا، أصاب زوجى وجع شديد كاد يهلكها، فجعلت النعل فى موضع الوجع، وقلت: اللهم أرنى بركة هذا النعل، فشفاها الله للحين.

وقال أبو إسحاق: قال محمّد أبو القاسم بن محمّد: ومما جرب من بركته أنَّ من أمسكه عنده متبركا به كان له أمانا من بغى البغاة وغلبة العداة، وحرز من كل شيطان مارد، وعين كل حاسد، وإنْ أمسكته المرأة الحامل بيمينها وقد اشتد عليها الطلق، تيسر عليها أمرها بحول الله وقوته.

ولله در الإمام الشيخ أبى اليمن بن عساكر رحمه الله حيث قال:

يا منشدا فى رسم ربع خالى ... ومناشدا لدوارس الأطلال

دع ندب آثار وذكر مآثر ... لأحبة بانوا وعصر خالى

والثم ثرى الأثر الكريم فحبذا ... أنْ فزت منه بلثم ذا التمثال

أثـر له بـقلـوبنـا أُثَـرٌ لهـــــــا شـــغل الخلـى بحب ذات الخـــال
قـبل لك الإقـبـال نعلى أخـمص حل الهـــلال بهـا مـحل قـــبـال
ألصق بهـــا قلبـــا يقلبـه الـهـوى وجـلا على الأوصـاب والأوجـال
صـافح بهـا خـــدا وعـفـر وجنة فى تربهـــا وجـدا وفـرط تـغـال
تشـفيك حـر جوى ثوى بجـوانح فى الحب مـا جـنحت إلى الإبلال
يا شبـه نعل المصطفى روحى الفدا لمحلك الأسـمى الشـريف العـالى
هملت لمـرآك العـيـون وقـــد نأى مـرآى العـيـان بغيـر مـا إهمـال
وتذكـرت عـهـد العـقـيق فناثرت شـــوقـا عـــقـيق المدمـع الهطال
وصـبت فـواصل الحنين إلى الذى مـــا زال بالـى منه فى بـلبـــال
أذكـرتنى قـدمـا لهـا قـدم العـلا والجـود والمـعـروف والإفـــضـال
أذكـــرتنى من لـم يزل ذكـــرى له يعـــتـــاد فـى الأبكار والآصـــال
لو أنْ خـدى يـحـتـذى لمثـــالهـا لبـلغت مـن نيل المـنى آمـــــالى
ولهـــا المفـــاخـر والمآثـر فى الدنا والدين فى الأقـــوال والأفـعـــال
أو أنَّ أجـــفـانى لوطء نـعـالهـــا أرض ســـمت عـــزا بذا الإذلال

* * *

وما أحسن قصيدة نسبهـا الشيخ أبو إسحاق بن الحاج، للأديب العلامة أبى الحكم مالك بن المرحل، رحمه الله تعالى، وهى قوله:

بوصف حبيبى طرز الشعر ناظمه ونمنم خد الطرس بالنقش راقمه
رءوف عطوف أوسع الناس رحمة وجادت عليهم بالنوال غمائمه
له الحسن والإحسان فى كل مذهب فآثاره محبوبة ومعالمه
به ختم الله النبيين كلهم وكل فعال صالح فهو خاتمه
أحب رسول الله حبا لو انه تقاسمه قومى كفتهم مقاسمه
كأن فؤادى كلما مر ذكره من الورق خفاق أصيبت قوادمه
أهيم إذا هبت نواسم أرضه ومن لفؤادى أنْ تهب نواسمه
فأنشق مسكا طيبا فكأنما نوافجه جاءت به ولطائمه
ومما دعانى والدواعى كثيرة إلى الشوق أنَّ الشوق مما أكاتمه
مثال لنعلى من أحب حديثه فهأنا فى يومى وليلى لاثمه
أجر على رأسى ووجهى أديمه وألثمه طورا وطورا ألازمه
أمثله فى رجل أكرم من مشى فتبصره عينى وما أنا حالمه
أحرك من خدى أحسب رفعه على وجنتى خطوا هناك يداومه
ومن لى بوقع النعل فى حر وجنتى لماش فوق النجوم براجمه
سأجعل فوق الترائب عودة لقلبى لعل القلب يبرد جاحمه
وأربطه فوق الشئون تميمة لجفنى لعل الجفن يرقأ ساجمه
إلاّ بأبى تمثال نعل محمّد لطاب محاذيه وقدس خادمه
يود هلال الأفق لو أنه هوى يزاحمنا فى لثمة ونزاحمه

وما ذاك إلاّ أنْ حب نبيينا يقوم بأجسام الخليفة لازمه
سلام عليه كلما هبت الصبا وغنت بأغصان الأراك حمائمه

* * *

وللشيخ أبى بكر أحمد بن الإمام أبى محمّد عبد الله القرطبى فى ذلك:

ونعل خضعنا هيبة لبهائها وأنا متى نخضع لها أبدا نعل
فضعنا على أعلى المفارق إنها حقيقتها تاج وصورتها نعل
بأخمص خير الخلق حازت مزية على التاج حتى باهت المفرق الرجل
معانى الهدى عنها استنارت لمبصر وإنَّ بحار الجود من فيضها تحلو
سلونا ولكن عن سواها وإنما يهيم بمغناها الغريب وما يسلو
فما شاقنا مذ راقنا رسم عزها حميم ولا مال كريم ولا أهل
شفاء لذى سقم رجاء لبائس أمان لذى خوف كذا يحسب الفضل

* * *

ورأيت فى بعض تماثيل النعل الكريمة مكتوبا بطرفها الشريف ما نصه:

مثال نعل الرسول خذه بحسن القبول
ففضله ليس يحصى لدفع كل مهول

وفى وسطها ما نصه:

أمرغ فى المثال بياض وجهى فقد عقد النبى لها قبولا
وما حب المثال شغفن قلبى ولكن حب من لبس المثالا

ورأيت مكتوبا بدائرتها ما نصه:

ما كان هذا المثال الكريم فى دار فسرقت، ولا فى سفينة فغرقت، وفيه خواص عجيبة. انتهى.

* * *

وقد حكى غير واحد أنَّ سراج الدين سيدى عمر الفاكهانى شارح العمدة والرسالة، لما أبصر تمثال النعال المطهرة أغمى عليه ساعة ثم أنشد حين أفاق متمثلا:

ولو قيل لمجنون ليلى ووصلها تريد أم الدنيا وما فى زواياها

لقال غبار من تراب نعالها أحب إلى نفسى وأشفى لبلواها

وقد ذكر أنَّ السراج الفاكهانى لما احتضر أغمى عليه ساعة، فلقنه بعض من حضره ففتح عينيه وأنشد:

وغدا يذكرنى عهودا بالحمى ومتى نسيت العهد حتى أذكره

ثم أدخل عليه تمثال النعل الطيبة، فحين شاهدها أغمى عليه ساعة، ثم أنشد البيتين المذكورين حين أفاق.

* * *

وقال الشيخ الرحال أبو عبد الله بن رشيد الفهرى:

لما دخلت دار الحديث الأشرفية برسم رؤية النعل الكريمة للمصطفى ﷺ ولثمتها، حضرتنى هذه الأبيات فقلت:

هنيـئا لعـينى أنْ رأت نعل أحمـد فيا سعد جدى قد ظفرت بمقصدى
وقـبلتـهـا أشـفى الغليل فـزادنى فيـا عجـبا زاد الظمـا عند موردى
فلله ذاك اللـــثم لهـو ألـــذ مـن لمى شـــفـــة لميـــا وخـد مـــورد
ولله ذاك اليـوم عـيـــدا ومـعلمـا بتـاريخـه أرخـت مـولد أسـعـد
عليـه صـلاة نشـرها طيب كـمـا يحـب ويرضى ربـنا لمحـــمـــــد

* * *

ولا بد أنْ نرسم تمثـال النعل الكريمة، تبـركا بصـاحبـها عليـه الصلاة والسلام.

وهذه صفتها:

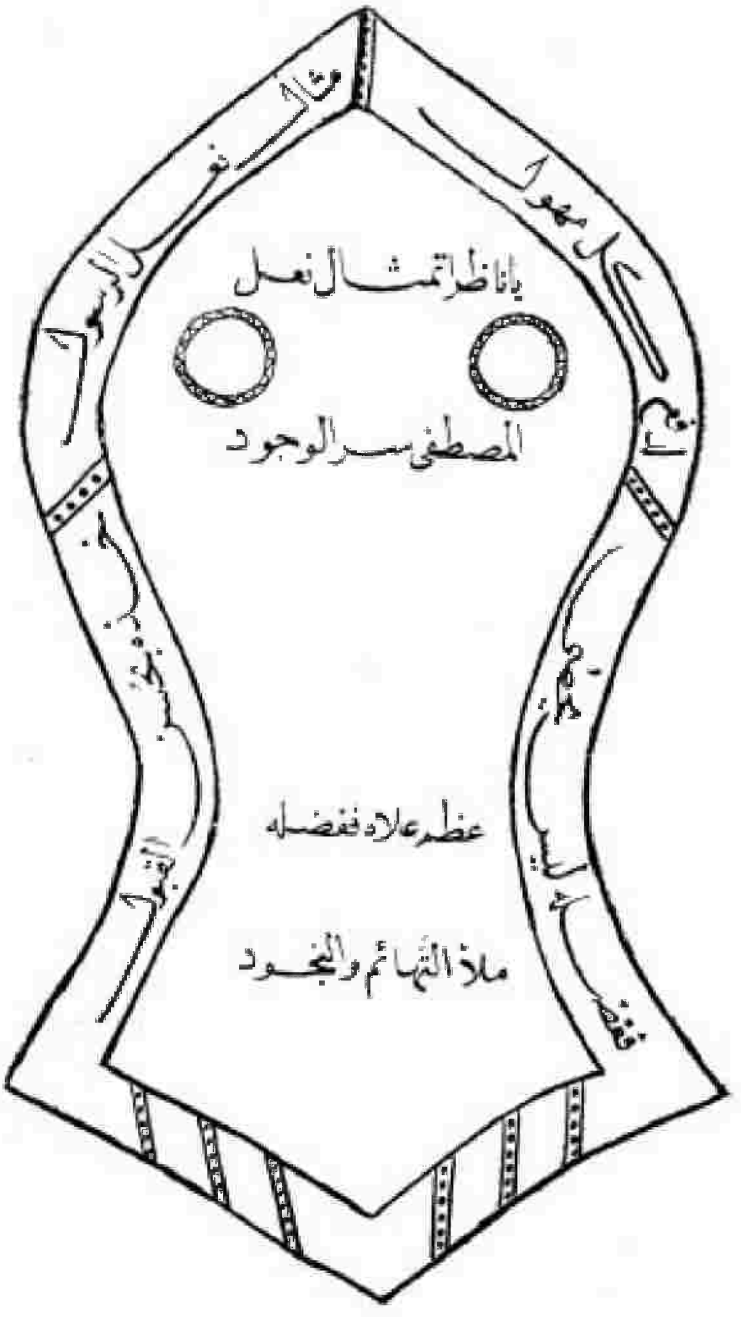

تِمثال النَّعْل النبويَّة، فى دار الحديث الأشرفيّة بدِمشق،
كما رسمته النسخة التَّيْموريَّة

ما كتب فى المثال الأيمن

وكتبت فى داخله ما نصه من نظم المؤلف رحمه الله تعالى:

يا ناظرا مثالى النعـ ـل المصطفى سر الوجود
عظم علاه ففضله ملأ التهائم والنجود
واجعله خير وسيلة فالله ذو كرم وجود
صلى عليه الله ما أحيا الحيا الروض المجود

ولغيره:

يا مبصرا تمثال نعل نبيه قبل مثال نعاله متذللا
واذكر به قدما علت فى ليلة الـ إسراء به فوق السموات العلا
واخضع له وامسح جبينك ولتكن متبركا أبدا به متوسلا

وللمؤلف رحمه الله تعالى:

واسأل به متضرعا مستمطرا ألطاف رب لم يزل متفضلا
فهو الوسيلة والملاذ إذا عرا خطب وأضحى الكرب أمرا مذهلا
فلكم أغاث من استغاث بجاهه وأناله أقصى المرام مسهلا
يا خير خلق الله دعوة حائر لم يتخذ إلاّ جنابك موئلا
صلى عليك الله يا نور الهدى والآل والصحب الكرام ومن تلا

ما حن مشتاق لذكرك أو غدا لمثال نعلك لازما ومقبلا

وللشامى الفقيه منن أهل العصر:

أيا ناظرا متع جفونك ساعة بأزهار هذا الروض من حيث ما تخطو

وقف الإذلال لله واطلبن بها نعمة الرضوان إنْ راعك السخط

فلو لم تكن مقبولة عند ربنا لما كان من هذا النعال بها وخط

وللمؤلف:

يا ناظرا تمثال نعـ ـلْ المصطفى قبله ألفا

واجعله خير وسيلة تدنى إلى الرحمن زلفى

واحفظه فهو ذخيرة ما مثلها فى الدهر يلفى

وللشامى أيضًا:

أنا[1] نعل الرسول سموت قدرا وفخرى غير خفى للبيب

أقول لمن بحبى ذات شوقا وأعيا داؤه طب الطبيب

تنشق مسك أنفاسى لتشفى بهذا الطيب من عرف الحبيب

وللمؤلف أيضًا:

بشرف المختار قد شرفت نعاله حتى سما ذا المثال

فاسأل له الرحمن جل اسمه فما به يسأل إلا أنال

وكيف لا يدرك مستمسك بالعروة الوثقى المنى بالسؤال

وجاه خير الخلق أعظم به ملاذنا فى حالنا والمآل

(١) كذا فى سائر الأصول وهو أنسب لقوله: «وفخرى» والذى فى المطبوع: «أيا» بحرف النداء.

صلى عليه الله مع صحبه وآله أجل صحب وآل

انتهى ما كتب فى المثال الأيمن.

ما كتب فى المثال الأيسر

وفى الآخر ما نصه:

وللمؤلف:

يا ناظرا تمثال نعـ ـل المصطفى فى ذا الكتاب

قبله أَلْفًا ثم زد ما شئت لا تخش العتاب

واسأل به رب الورى سبحانه حسن المآب

وله أيضًا مما قاله بديهة:

حاز هذا المثال كل المزايا إذا حكى نعل رجل خير البرايا

أحمد المصطفى الملاذ إذا ما طرق الدهر أهله بالبلايا

مَلْجَإِ العالمين طرا إذا ما جمع الناس يوم تخشى الرزايا

خيرة الله مجتباه ومن حا ز خلالا حميدة وعطايا

فعليه الصلاة ما قبل النعـ ـل مشوق يروم محو الخطايا

وللكاتب المكلاتى من أهل العصر يشير إلى هذا المثال الكريم:

انظر إلى البدر وتكليفه بين شراك يا لها من قبال

ما صار كالعرجون من تِمّه إلاّ محاكاة لهذا المثال

وللمؤلف أيضًا فى ذلك:

يا ناظرا فى مثال ... أضحى هنا ذا ارتسام
يحكى نعالاً تناهت ... فى الحسن دون مسامى
قبله تقبيل صب ... موله مستهام
وضعه من فوق راس ... تاجا لمفرق هام
وابسط له حر وجه ... ولا تخف من ملام
ففضله ليس يحصى ... بنثر او بنظام
واحفظ علاه وصنه ... وكن له ذا احترام
أمان حرف وخوف ... تيسير كل مرام
لا يطرق الدهر دارا ... غدت به فى اتسام
والفلك إنْ كان فيها ... لم يخش من هول طامى
فيا لها بركات ... شهيرة فى الأنام
وكيف لا وهو ينمى ... للهاشمى التهامى
خير البرية طرا ... إمام كل إمام
أسخى الخليفة كفا ... أرعاهم لذمام
إنسان عين المعالى ... وذو السجايا الجسام
عليه أزكى صلاة ... بطيبة وسلام
والصحب والآل طرا ... والتابعين الكرام
ما استنشقت نسمات ... من عرف مسك الختام

انتهى ما فى النعل الكريمة واتصل به ما نصه:

ومما قيل فى النعل الكريمة قول الإمام المحدث الرحال أبى عبد الله محمّد بن جابر الوادى آشى، ونظمها بدار الحديث الأشرفية من دمشق، وقد رأى فيها تمثال نعل النبى ﷺ فقبله وقال:

دار الحديث الأشرفية للشفا ... فيها رأت عيناى نعل المصطفى
ولثمته حتى قنعت وقلت يا ... نفس انعمى أَكَفاكِ؟ قالت لى: كفى
لله أوقات وصلت بها المنى ... من بعد طيبة ما أجل وأشرفا
لك يا دمشق على البلاد فضيلة ... أيامك الأعياد لازمها الصفا
ولكم بجيرون جررت ولم أخف ... ذيلا وبرح هواى فيها ما اختفى

* * *

قلت ومما أنشدنى الفقيه الأريب العلامة الأديب الحاج الرحال، أبو الحسن صاحبنا سيدى علىّ بن أحمد الشامى الخزرجى لنفسه، فى تمثال النعل الكريمة، قوله نفعه الله بقصده، وكتبه لى بخطه، وكنت طلبت منه ذلك لأثبته فى هذا الموضوع:

دعوا شفة المشتاق من سقمها تشفى ... وترشف من آثار ترب الهدى رشفا
وتلثم تمثلا لنعل كريمة ... بها الدهر يُسْتَسْقَى الغمامُ ويستشفى
ولا تصرفوها عن هواها وسؤالها ... بعدلكم فالعدل يمنعها الصرفا
ولا تعتبوها فالعتاب يزيدها ... هياما ويسقيها مدام الهوى صرفا
جفتها بكتم الدمع بخلا جفونها ... فمن لامها فى اللثم فهو لها أجفى
لئن حجبت بالبعد عنهم فهذه ... مكارمهم لم تُبْقِ سترًا ولا سجفا

وإنْ كان ذاك الخيف موعد وصلهم فهـا نفحة الإفضـال قربت الخيـفا
وأغنت بفـضل عن مـشقـة شقـةٍ نكابد مـسراها شـتاء يلى صـيفـا
فـحـركت الأشـــواق منا لروضـةٍ أباح لنا الإسـعاد من زهرها قطفـا
زمـــان مـــوصـولـنا نال عـــائدا وأكد نعت الوصل من نحوهم عطفا
تولى كمثل الطيف إذ زار فى الكرى وإلاّ كمـثل البرق إذ سـارع الخطفا
تقـضى ومـــا قـضى بلبنـى لبـانةً لقيس الهوى والحب منا وما استوفى
فـــزلنا ومـــا زلـنا نعلل بـاللقـــا نفـوسًا وما تجـدى لعل ولا سـوفا
كـــأنـا ومـــا كنا نجـــوب منازلاً يود بهـا المشتـاق لو راهق الحـتفـا
ولم تبصـر الأبصار منها مـحاسنًا ولم تسـمع الآذان من ذكرها هتـفا
كذاك الليـالى لم تحل عن طباعـها متى واصلت يومًا تصل قطعها ألفا
فلا عسش لى أرجوه من بعد بعدهم وهيهات يرجى العـيش من فارق الإلفا
ويا حـبذا قـتل إذ العـيش لم تزل سيوف الهوى تفرى به القلب والجوفا
ومن لى بقتل فى سبيل الهوى التى وعـدنا عليـهـا بالجنان ومن أوفى
أيا مـن نأت عنه ديـار أحـبـــةٍ فمن بعدهم مثلى على الهلك قد أشفى
لئن فـــاتنا وصل بـخـيف مـناهم فها نفحة من عـرفهم للحشا أشفى
وهاتيـك أزهار الرياض تنـفـــست بأنفاسـهم فاسـتشـفين بهـا تشفى
وقل للألى هامـوا اشتـياقًا لبـانهم هلموا لعـرق ألبان نستنشق العـرفا
فصفـخة هذا الطرس أبدت نعالهم وصارت لها ظرفا فـيا حسنه ظرفا
تعالـوا نغال[1] فى مديح عـلائها فـرب غـلوٍ لم يعب ربه عـــرفـا

(١) هذا المثبت فى سائر الأصول بالنون فى أوله، وهو أنسب، والذى فى المطبوع: «تغالوا».

ولله قـــوم فى هواها تنـافـســـوا وقد غـرفوا من بحر أمدادها غـرفا
وإنا وإنْ كـنا على الـكل لم نـطق نحاول بعض البعض من بعض ما يلفى
لئن قـبلوا ألفـا نـزد نحن بعـدهم على الألف ما يستـغرق العد والألفا
وإن وصفوا واستغـرقوا الوصف حسبنا نجيل بروض الحسن من وصفهم طرفا
ونقـبس من أنوارهم قـدر وسـعنا ونركض فى مـضمار آثارهـم طرفا
فمن قال بدر ألتم أو طلعة الضحى أو الروض يحكيها فـما أنصف الوصفا
فما الشمس إلاّ من محاسن ضوئها اسـ ـتنارت ولولاها للازمت الـكسفـا
وما البدر إلاّ من مـشارق نورها اسـ ـتـمـد ولولاها لما فـارق الخسـفـا
ومـا طاب نشـــر الروض إلا لأنه يمد مـدى الأيام من نشرها عـرفا
وما اخضـر ترب الأرض إلا لأنها تخطتـه فاخـتط النبـات به حرفـا
فحلوا بـها أعلى المفارق واكـحلوا بها مـقلة العينين أو عـطروا الأنفا
فـآثارهـا تبـرى الجـوى وتـرابهـا لسقم الحـشا والقلب أنفع أو أنفى
لها الفخر أن سارت بها رجل من سرى إلى حضرة التقديس والقرب والزلفى
ونودى لا تخلع نـعـالك واقـربن وألفى بها من نفـحة الحب ما ألفى
وأدناه قـربًـا قـاب قـوســين ربه وناداه قل تسمع وسل تعط عد تكفى
نبـى به نلنـا المنى وتـوا كـــفت علينا من الرحمن سحب الرضا وكفا
تعلى على الـعليـاء حـتى أنار من علاه العلا والغور والنجـد والخيفا
وقـــاتل فى إظهـــار أنوار ديـنه جميع العدى حتـى زوى الضيم والحيفا

وكـان إلى الهـيـجـاء أوّل سـابق ... وما فـارق العضب المنهد والسيـفا
هواه هدى الهادين مـنه إلى الهدى ... وحبـه أهدى الوارد المورد الأصفى
وآياته كـــالزهر والزهـر نفـحـــة ... وعدا فـمن ذا يستطـيع لها وصـفا
كفت كـفه الجيش اللهام عن الحـيا ... وكفت جيوش الكفر عن غـيها كفا
وردت له الشـمس المنير شـعاعـها ... كذا البـدر بعد التم صار له نصـفا
وجوده أجـدى من رياح عواصف ... ومن ذا يبارى الريح إن رامت العصفا
أمـولاى يا مولاى يا خـيـر سيـد ... تسامى على الأشباه طرا مع الأكفا
نأت بى عنكم مـوبقـات جنيـتهـا ... وعفـوكم من كل كلف بهـا أكفى
وهأنا عنـد البـاب راج وخـــائف ... دموعى لا ترقـا وشجـوى لا يطفا
أناديك يا خـــيـر الـبـرية كلـهـا ... نداء عبـيد يرتجى الـعفو والعـطفا
وإنى مـحق فى هوى حـبك الذى ... يفل جيـوش الهَمِّ إن أقبلت زحـفا
ومـا أنا فـيـه كـالذى قـال هازلاً ... «أليلتنـا إذ أرسلت واردا وحـفـا»
فـــآها لـنفـــسى ثم آهـا إذا أنا ... طردت ويا لهـــفـا أرددها لهـــفـا
وواحـسرتا يا حـسـرتا ثم حسـرتا ... إذا لم تكن فى موقف الحشـر لى كهفا
ولكن لى ظنا جـمـيـلا بنسـبـتى ... لأنصاركم يا خيـر من راقب الحلفا
كـمـا أنَّ لى أيضًـا مـتـاتًا بمدحى ... نعـالا بهـا نيل العلـى والمنى يلفى
أبى النظم يستـوفى حلاها وهل يفى ... روى بآثار الـهـــدى ألف أوفـــا
عليـك صـلاة مـــا بدا بـدر تمكم ... وما اشتاق مشتاق إلى وعدك الأوفى

ومما أنشدنيه أيضًا لنفسه فى ذلك قوله:

مثال النعل فى القرطاس خطا ... بسمر الشوق فى الأحشاء خطا

ولما أن لثمت ندى ثراه ... وغشى نوره جفنى وغطى

شممت الورد من رياه يندى ... وشمت البدر من علياه حطا

ففجر لى من العينين بحرا ... ونثر من لآلى الدمع سمطا

وروى من جماد الجفن جسمى ... وأروى من زناد الشوق سقطا

وهز من أهوى عطف ارتياحى ... لأرض لم تزل تزداد شحطا

وذكرانى معاهد لست أنسى الـ ... ـمزار بها ولو بالبعد شطا

معاهد خير من ركب المطايا ... وأكرم من خطا نعلا وأوطا

بأخمص رجله الحسناء حازت ... مفاخر لم يطقها الوصف ضبطا

سمت فسعت لها زهر الدرارى ... لتلثم وتطوف شوطا

فكلت دونها وسطت عليها ... ولا بدعا بذاك الفخر يسطى

فمن قال الهلال لها مثال ... لعمر الله فى التمثيل أخطا

ولكن البدور لها نعال ... تود بها تداس علا وتخطى

وما طلعت عيون الشمس إلاّ ... لطلعتها تروم بها محطا

وما رقصت غصون النبت إلاّ ... لعلياء تحط الراس حطا

وما غنت طيور الأيك إلاّ ... عليها تعتلى الأغصان حوطا

وما حنت حداة العيس إلاّ ... إليها تبتغى أثلا وخمطا

وما هبت نسيم المسك إلاّ لرياها تنال بذاك خلطا
ولو يوما تخطت أرض جدب لما ألفت بها فى الدهر قحطا
يحق لنا نعظمها جلالا ونربط طرسها بالقلب ربطا
وننتعل الوجوه بها جمالا ونجعلها على الآذان قرطا
وتعتصب المفارق من ثراها وتكتحل العيون بذاك شرطا
نعفر وجنة فيها وخدا ونخضب من سواد الرأس شمطا
وننشد من يعاتب فى هواها «إليك خبط من عشواء خبطا»
ودعنا والهوى إنا أناس يزيد غرامنا بالعتب فرطا
وإنا معشر العشاق ممن يرى جور النوى والبعد قسطا
ونقنع بالخيال مدى الليالى وإن طال التباعد أو تشطا
ولا سيما المثال وقد تبدى يجر على علا الجوزاء مرطا
وما نعلا نريد ولا مثالا ولكن من بها العلياء تخطى
نبى إن أتيت إلى حماه وجدت سماحة فى الخلق بسطا
أتى والدين أصبح فى انقباضٍ فعاناه إلى أن نال بسطا
وقاتل فى سبيل الله حتى أزال عن الورى قنطا وضغطا
وعمت دعوة منه وغمت بآيات الهدى فرسا وقبطا
فطوبى للذى لبى سريعا ويا ويل الذى عن ذاك أبطا
سما لسما العلاء فنال قربا وهم بنعله نزعا وكشطا

ونودى طأ ولا تخلع نعالا ... وأبدل من مقام الروع بسطا

وأيده الإله بروح قدسٍ ... ومد له من التقديس بسطا

وعظمه على الأرسال طرا ... ونظمه بسلك الوحى وسطى[1]

هناك حباه فرضا من صلاة ... بها عنا الذنوب تصيب حبطا

وسدده إلى أن جاء موسى ... ورده إليه يروم حطا

إلى أن صير الخمسين خمسا ... وأبقى أجرها والإصر حطا

وأعطاه الشفاعة يوم حشر ... يقول أنا لها والناس قنطى

وتعجز دونها الأرسال طرا ... وتأتى الناس سبطا ثم سبطا

إذ الجبار يبرز بانتقام ... ويبدى للورى غضبا وسخطا

فيدنيه ويلهمه بفضل ... محامد مثلها ما قط أعطى

ومهما رام يشرع فى سجود ... ويضرع بالدعا ويخر هبطا

يناد ارفع تطلع واشفع تشفع ... وقل يسمع وسل ما شئت تعطى

فيحظى بالمراد قرير عينٍ ... بما أولاه تكرمة وغبطا

ويصدر شافعا فى كل عاصٍ ... مصر دنس الأعمال وخطا

ويخرج من له أدنى نواةٍ ... من الأيمان والنيران فرطا

جزاه الله عنا كل خير ... وحاط به ديار الدين حوطا

ولا زالت صلاة الله تترى ... عليه ما بدا بدر وغطى

تفوح وختمها مسك عبيق ... يعم عبيره آلا ورهطا

---

(١) كذا فى سائر الأصول وهو أوضح وأنسب، والذى فى المطبوع: «بذاك العقد وسطى».

وأنشدنى أيضًا لنفسه فى ذلك، مكملا ما سقط من الحروف من كلام ابن فرج السبتى المتقدم الذكر قوله جاريا على طريقته:

قافية الواو

وقفت على تمثال نعل كريمةٍ ... فأحييت برسم الشوق منى ما أقوى

وأيقنت إنى إذ ظفرت بلثمها ... تمسكت فى أخرى بالسبب الأقوى

وناديتها يا نعل عذرًا فإننى ... على مدح بعض من معاليك لا أقوى

وطئت ربوعا للهدى ومغانيا ... علاها على الرضوان أُسِّس والتقوى

ولامست رجلا لو يطاوع تربها ... ثريا السما شدت لتقبيله حقوا

قافية لام الألف

لآلى نعال المجد أهلا بها أهلا ... وشكرا لأن كنا لتقبيلها أهلا

لآلى رسول مسها جلد رجله ... بها ورد فخر يَعْذُبُ العل والنهلا

لآدم هذا الفخر أيضًا لأننا ... بذى النعل أنقذنا الغواية والجهلا

لأقسم يا من لام فيها عليك لا ... تعذب بتعذالى ومهلا به مهلا

لأنى غريق فى هوى حبها وكم ... محب يرى التعذيب فى حبها سهلا

قافيه الياء

يود لسانى أن يؤدى مدحها ... نعالا فيعيننى علاها وحرف اليا

يؤدى ولكن لا يطيق كمالها ... ولو أنَّه يفعل بيان الورى فليا

يمينا وإنى فى يمينى صادق ... لحليتها صيغت من الجنة العليا

يواقيت سـر الكون والجود رصت بها وطأة التـقديس فانتـظمت حليا
يوارى علا رجل على من مـشى بها سـلام مدى مـا ازداد من ربه وليـا

***

وأنشدنى أيضًا لنفسه فى ذلك قوله:

هذى نـعـال أحـمـد مـولى المقـام الأحـمـد
فـاشكر أخى إذ شـمت من برق سـناها واحـمـد
واكـتـحلن بتـبـرها فـهـو شـفـاء الأرمـد
وارشـف ثـراهـا إنَّـه يجلى صـدا القلب الصـدى
والمس بـهـا طـرسـهـا تنل كـمـال المقـصـد
واقـبس سـنى من نـورها فـهى سـراج المهـتـدى
كم مـن إمـام أمـهـا وبهـداهم اقـتـد
وضـمـهـا لـصـدره ضـمـة ذى تـودد
لهـا خـصـال جـمـة تربـى على الـتـعـدد
من لـم تزل فى بيـتـه يحـظى بعـيش رغـد
يضـحى ويمـسى آمـنا فـى كل يـوم أو غـد
لا يمـتـرى فى فـضلـهـا سـوى غـبىٍ أو غـد
أو جـاهلٍ بـقـدرها أو جـاحـد أو ملحـد
كـم أبـرأت مـن عـلـة من كـل داء مـجـهـد
وكـم أبـانـت مـن هـدى بـنـورهـا المـؤيـد
وكم أبـادت من عـدى بسـيـفـهـا المهـند

وكم أجـارت مـن حـمى بركـانهـا المشـيـد
فـهى أمـان خـائف وهى رجـاء القُـصَّـدِ
وهى عـمـاد الملتـجى وهـى مـراد الـرود
بالغ أخـى فى مـدحـهـا واشـدد بأزرى واعـضـد
وانسب لهـا مـا شـئت من فـخـر ولا تـفنـد
وقف هـنا هـنيـهـة وقـفـة صبٍ مسـعـد
وانهض إلـى تقـبـيلهـا نهـضـة خلٍ مـنجـد
وقل إذا قـبلتـهـا مـقـالـة المسـتنجـد
يا أكـرم الخـلق الـذى قـد حـاز كل سـودد
يـا مـصـطـفى آثـاره بهـا الأنـام تهـتـدى
ويا مـجـيـر خـائفٍ من كل سـوء يعـتـدى
ويا مـحب سـائل إذا أتاه يـجـتـدى
عـبـيـدكـم ببـابـكم حـيـران ذا تـردد
وافى عـلاك تائـبـا مـن ذنبـه المـعـدد
يرفـع من مـديـحـه إلى عـلاك الأمـجـد
عـقـائـلا تنسـق من در ومـن زبـرجـد
تحكى عـقـود جـوهر أقـسـامـهـا من عـسـجـد
فـامنن لـه بعـطفـه من فـضلك الممـجـد

ونهلة من حوضظ الـ ـعذب اللذيذ المورد
ووقفة بروضك الـ ـغض الندى المورد
وزورة لقبرك المـ ـرضى الزكى الملحد
وأوبة له عسى يكون ثم مرقدى
صلى عليك الله ما بدا ضياء الفرقد
والآل والصحب الألى فازوا بكل الأسعد
ومن أتى من بعدهم من كل حبر أوحد
ومن تلا جميعهم ما زم ركب أو حدى
ورددت من منشد هذى نعال أحمد

***

وأنشدنى أيضًا لنفسه فى ذلك الغرض:

نعال بها يشفى العليل من الجوى ويجلى بها عنه المَصَائِبَ ذو البلوى[1]
هى البرء إلاّ أنَّ شرب دوائها لذائقه أحلى من المن والسلوى
هلموا نقبل تربها فعسى به نخمد جمرا من لظاها الحشى تكوى
فرب عليل جاءه من طبيبه بشير فخفت عنه من حينه الشكوى

***

وأنشدنى أيضًا لنفسه فى ذلك الغرض:

أتت شمس السماء تحط راسا لهذى النعل من دون انتعال[2]

(١) هذا المثبت فى سائر النسخ فيكون ذو فاعلا والمصائب مفعولا به، وهو أوضح وأنسب، والذى فى المطبوع: «وتجلى بها عنه المصائب والبلوى».

(٢) هذا المثبت فى سائر النسخ، وفى المطبوع: «من دون النعال».

وتلثم تربها ذلا لتحظى بما رامته من رتب المعالى
فقال لها الهلال وقد رآها أنخضع لا محالة للنعال؟
فنادته ابتدرها لا تؤخر فيفتضح المُعَالى بالمَعَالى

***

وخاطبنى فى هذا الغرض، مشيرا إلى إثبات هذه المنظومات التى سمحت بها قريحته فى هذا الموضوع:

أمفتى فاس زند شوقى قد ورى بخير الورى فانقاد طوع عنان
وهبت صبا نجد فهاجت صبابتى وساعد بلبالى بيان بنانى
وصالت على أوصال فكرى فأقلعت عرائس غرس من جنان جنانى
وقد ذوت الأغصان وانتشرت بها أزهارها تحكى نثير جمان
وهذا أوان الغرس جودوا بنقلها لروضكم تحظى بنيل أمان

***

ولنرجع بعد هذا المقدار إلى ما كنا بصدده، فإن مثل هذا الغرض لا سبيل لحصر عدده، فنقول:

بين القاضى عياض والزمخشرى

وممن استجازه القاضى أبو الفضل عياض رحمه الله ولم يجزه:

الزمخشرى صاحب الكشاف سامحه الله.

وسمعت غير واحد ممن لقيته يخبر أنَّ القاضى عياض لما بلغه امتناع الزمخشرى من إجازته قال: الحمد لله الذى لم يجعل عَلَىَّ يَدًا لمبتدع أو فاسق، أو نحو هذا من العبارات، والله اعلم.

وإمامة الزمخشرى فى العلوم معروفة ولكن أعنة القلوب إلى من بيده التوفيق وضده مصروفة. ولا بد من الإلمام ببعض أحوال هذا الرجل الذى اختلفت فى أمره الآراء، وآنس من جانب البيان والنحو نارا، وأنكر الحق وقد وضح نهارًا، وذكر يعضهم أنه تاب ويأبى ذلك تصريحه فى كشافه بما خالف السنة جهارا، فإنه لو صح ذلك لمحاه، أو أشهد على نفسه بالرجوع عما قصده فيه وانتحاه، وكثير من الأئمة أغضى عن اعتزاله، وانتفع بكشافه مع قطع النظر عن موضع التهمة واختزاله.

بين الحافظ السلفى والزمخشرى

وممن استجازه فأجازه الإمام الحافظ أبو الطاهر السلفى الأصبهانى، المتقدم الذكر، رحمه الله، فإنه خاطبه فى ذلك بما نصه بعد البسملة:

إن رأى الشيخ الأجل العالم العلامة أدام الله توفيقه، أنْ يجبز جميع سماعاته ورواياته وما ألفه فى فنون العلم وأنشأه من المقامات والرسائل والشعر لأحمد بن محمّد بن أحمد السلفى الأصبهانى، ويذكر مولده ونسبه إلى أعلى أب يعرف، ويثبت كل ذلك بخطه تحت هذا الاستدعاء، مضافا إليه

ذكر ما صنفه، وذكر شيوخه الذين أخذ عنهم وما سمع عليهم من أمهات المهمات، حديثا كان أو لغة أو نحوًا أو بيانًا، فعل مثابًا، وإنْ تمم إنعامه بإثبات أبيات قصار، ومقطوعات فى الحكم والأمثال والزهد وغير ذلك، من نظمه ومما أنشده شيوخه من قِبَلِهِم أو من قِبَل شيوخهم، بعد تسمية كل منهم وإضافة شعره إليه، والشرط فى كل هذا أنْ يكون بالإسناد المتصل إلى قائله، كان له الفضل، وكذلك إنْ صحبه أصحبه بشىء من رواياته، أنعم بكتب أحاديث عالية، والله تعالى يوفقه ويحسن جزاءه، ويطيل لنشر العلم والإفادة بقاءه.

ويعلم وفقه الله أنَّه قد وقع إلينا كتاب من يعقوب بن شرين الجندى رحمه الله، وفيه قصيدة يرثى بها البرهان البخارى والحاجة داعية إلى معرفة اسمه ونسبه وضبطه، هل هو ابن شرين بالسين المهملة أو المعجمة وكذلك الجندى بفتح الجيم والنون أو ضم الجيم وإسكان النون بعدها.

والحمد لله حق حمده، وصلواته على سيدنا محمّد نبيه وعبده، وعلى آله وصحبه أجمعين من بعده.

فكتب إليه الزمخشرى ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. أسأل الله أنْ يطيل بقاء الشيخ العالم ويديمه لعلم يغوص على جواهره ويفتق الأصداف عن ذخائره ويوفقه للعمل الصالح الذى هو مرى أغراض أولى العقل ومطمح أبصار المرتكضين إلى غاية الفضل ولقد عثرت من مقاطر قلمه على جملة تنادى على غزارة بحره وتطبى القلوب إلى التزين بسموط دره. وأما ما طلب عندى وخطب إلى من العلوم والدرايات والسماعات والروايات فبنات خلعت على تربيتهن الشباب ثم دفنتهن وحثوت عليهن التراب وذلك حين آثرت الطريقة الأويسية على بنيات

الطرائق، وأخذت الحجب والعوائق، ونقلت كتبى كلهـا إلى مشهد أبى حنيفة رحمه الله، فوقفتها، وأصفرت منها يدى، إلاّ دفترا واحدا قد تركته تميمة فى عضدى، وهو كتاب الله المبين، والحـبل المتين، والصراط المستقيم، لأهب لما قعدت بصـدده كلى، وألقى عليه وده كلى، لا يشغلنى عنه بعـض ما يجعل الرأى مشتركا، ويرد القلب مقتـسما، ولذت بحرم الله المعظم، وبيته المحرم، وطلقت ما وزرنى بتا، وكـفت ذيلى عنه كفتا، ما بى هم إلاّ خويصـيتى وما يلهينـى إلاّ النظر فى قصتى، أنـتظر داعى الله صباح مـساء، وكـأنى به وقد امتطيـت الآلة الحدباء، قد وهنت العـظام، ووهنت القوى، وقلت الصـحة، وكثر الجـوى، وما أنا إلا ذماء يتردد فى جـسد، هو هامة اليوم أو غـد، فما لمثلى وما له من الآخرة شىء. ولقد أجزت له يروى:

محمود الخوارزمى ثم الزمخشـرى، منسوب إلى قرية منها، هى مسقط رأسى، ولبعض أفاضل المشرق:

فلو وازن الدنيـا تراب زمـخـشـر لأنك منـهـا زاده الله رجـحـانا

وللشريف الأجل الإمام علىّ بن عيسى ببن حمزة بن وهاس الحسنى:

جميع قرى الدنيا سوى القرية التى تبـوأها دارا فـداء زمـخـشـرا
وأحـر بأن تزهى زمخـشر بامـرئ إذا عد فى أسد الشرى زمخ الشرى
فلولا مـا طن البـلاد بذكـرها ولا طار فـيـهـا منجـدا ومـغـورا
فلـيس ثنـاها بالـعـراق وأهـله بأعـرف منه فى الحـجـاز وأشهـر

ومن المقطوعات التى اخترعتها من قِبَلِى:

ومـروعـة بمشـيـب رأسى أقـبلت تبكى فـقلت لهـا ودمـعى جـارى

هذا المشيب لهيب نار أوقدت ... فى القلب موقدها حذار النار

أخرى:

إليك إلهى المشتكى نفس مشته ... إلى الشر تدعونى عن الخير تنهانى

وما يشتكى الشيطان إلاّ مغفل ... إلاّ إن نفس المشتهى ألف شيطان

أخرى:

شكوت إلى الأيام سوء صنيعها ... ومن عجب باك تشكى إلى المبكى

فما زادت الأيام إلاّ شكاية ... ومازالت الأيام تشكى ولا تشكى

أخرى:

مسرة أحقاب تلقيت بعدها ... مساءة يوم أريها شبه الصاب

وكيف بأن تلقى مسرة ساعة ... وراء تقضيها مساءة أحقاب

أخرى:

الخوض فى دول الدنيا يلج بكم ... كأنها لجج خواضها لجج

كم خلصت لجج البحر الرجال وما ... أقل من خلصته هذه اللجج

أخرى:

مبالاة مثلى بالرزايا غضاضة ... أباها وثيق العقدتين حصيف

إذا أقبلت يوما على صروفها ... لأنيابها فى مسمعى صريف

عتاب لها حتى أَشُقَّ نحورها ... أسنة عزم حدهن رهيف

يمسحن أركانى وهن قوافل ... صفا صادرات النبل عنه مصيف

والقاضى أديب الملوك أبو إسماعيل يعقوب بن شرين الجندى، أفضل الفتيان فى عصره، وأعقلهم وأذكاهم وأدهاهم، وكان كاتب سلطان خوارزم فاستعفى، وهو يكتب باللسانين العربية والفارسية ويحسن، وهو ممن ربيت وخرجت وبلغت تلك الذروة، وهو أوثق سهم من كنانتى.

والحمد لله أولا وآخرا، والصلاة على نبينا محمّد وآله والطيبين.

* * *

ثم إن الشيخ السلفى عاوده الاستجازة فى السنة الثانية من إسكندرية كأنه ما وصلته إجازته فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم. المسئول من كرم الشيخ الأجل العلامة أدام الله بهجته، وحرس مهجته، أنْ يجيز لأحمد بن محمّد السلفى الأصبهانى جميع مسموعاته ومجموعاته فى جميع الفنون، ويثبت بخطه أساميها تحت هذا الخط، ويضيف إلى ذلك ذكر شيوخه الأعلام، الذين أخذ عنهم الحديث واللغة ويذكر جملا مما سمعه عليهم، ويتمم تفضيله بأبيات أحاديث قصار من رواياته عنهم وكَتْب شىء من شعر من رآه وأنشده من قبله، بعد المبالغة فى التعريف به، ولا يذكر من الأبيات إلاّ القصار، التى تصلح لأصحاب الحديث ويتصور إخراجها فى الأمالى وأواخر الفوائد، ويذكر متفضلا مولده والسنة التى ولد فيها، فالحاجة داعية إلى كل ذلك ويبين ذكر المؤتلف والمختلف الذى ألفه فى أى فن هو وعلى أى شىء يجوز؟ أعلى ذكر الفقهاء أو الأدباء أم أهل الحديث؟ ولا يحوج أدام الله توفيقه إلى المراجعة، فالمسافة بعيدة، وقد كاتبه فى السنة الماضية ولم يجبه بما يشفى الغليل، وله فى ذلك الثواب الجزيل، إنْ شاء الله تعالى وبه الثقة.

(١) هذا المثبت من سائر النسخ، ويدعمه قوله بعد: «من الأبيات إلا القصار» والذى فى المطبوع: «بإثبات».

فأجاب فخر خوارزم بما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

ما مثلى مع أعلام العلماء إلاّ كمثل السـها مع مصابيح السماء، والجهام الصفر والجهام مع الغوادى الغامرة للقيان والإكام، والسكيت المخلف مع خيل السبـاق، والبغاث مع الطيـر العتاق، وما التلقـيب بالعلامة، إلاّ شـبه الرقم بالعلامة، كمـا قال بعض العرب، وقيل له لم سميت نعامهْ: الأسـماء علامهْ وليست بكرامهْ ولو كانت كرامة لاشتراك الناس فى اسم واحد. والعلم مدينة أحد بابيها الرواية والثانى الدراية، وأنا فى كلا البابين ذو بضاعة مزجاة، ظلى فيه أقلص من ظل حصاة، وأما الرواية فحـديثة الميلاد قريبة الإسناد لم تستند إلى علماء نحارير ولا إلى أعلام مشاهيـر، وأما الدراية فثمد لا يبلغ أفواها، وبرض لا يبل شفاها، ولا يغرنكم قول الوزير مجير الدولة:

وجولت فكرى فى الـبلاد فلم يقع على رجل فى علمـه غـيـر راجل
إلى أنْ جرى الطيـر السنيح فدلنى على فخر خوارزم ورأس الأفاضل

ولا قول المنتخب محمّد بن أرسلان:

وما نـاصر الإسلام إلاّ ابن بـجدة يحـيط بعلم لا يحـيط به الورى
أبو القاسم المحـمود محـمود الذى به تفـخر الدنيـا وناهيك مـفخـرا

ولا قول الـشريف الأجل ذى المناقب، أبى الحـسن علىّ بن حمـزة بن وهاس الحسنى المدنى.

قال أحمد المَقَّرِىّ وفقه الله:

هو علىّ «بضم أوله وفتح ثانيه» ابن عيسى بن حمزة بن وهاس الحسنى العلوى؛ وقيل إنَّ الكشاف برسمه صنعه الزمخشرى، رحم الله الجميع.

رجع إلى كلام الزمخشرى:

وكم للإمام الفرد عندى من يد ... وهانيك مما قد أطاب وأكثرا

أخى العزمة البيضاء والهمة التى ... أنافت به علامة العصر والورى

جميع قرى الدنيا سوى القرية التى ... تبوأها دارا فداء زمخشرا

وأحر بأن تزهى زمخشر بامرئ ... إذا عد أسد الشر زمخ الشرى

فلولا ما ظن البلاد بذكرها ... ولا طار فيها منجدا ومغمورا

فليس ثناها بالعراق وأهله ... بأعرف من فى الحجاز وأشهرا

إمام قلبنا من قلبنا وكلما ... طبعناه سبكا كان أنضر جوهرا

ومكة راووق الرجال فهاكه ... مصفى وخذ من شئت منهم مكدرا

رسا طود تقوى فاض بحر فضائل ... فَكَمْ دَلَّ[1] أطوادا وغيض أبحرا

وتحت علاق الصدق سر مطهر ... يمدان دينا كالمجرة نيرا

فلولا سماء أشمست ثم أقمرت ... كفى بمعاليه شموسا وأقمرا

ولا قوله رحمه الله:

لقد شجنى فى أم رأسى عزمه ... فأصبحت من عزم الإمام أميما

تمنيت لو لم ألقه وجهلته ... ولم يخش قلبى بالفراق كلوما

(١) هذا الصواب من سائر النسخ، وفى المطبوع: «فكمَ أذَل» ولا يستقيم به الوزن، والبيت من الطويل.

فـديت أمرا يحـشو الفـؤاد فراقـه كلومـا ولقـيـاه حـشـتـه علومـا
وكائن رأينا من أولى الـعلم والتقى رجـالا أناخـوا بالحـجـاز قـرومـا
فَـأَخْمَـدَ أُسْتَـاذُ الزمـان ضيـاءهم وكـان وكـانوا شـــارقـا ونجـومـا

ولا قوله رحمه الله:

أتى حـــرم الله العظيم مـــجـاورا فللـه مـــا أدنت جِـــمـــال وأينق
فمن حوضـه عبت ظماء ذوى النهى فـــآبت رواء وهو مـــلآن يفـــهق

ولا قول العميدى رحمه الله:

ولو وازن الدنيـا تراب زمـخـشـر لأنك منـهـا زاده الله رجـــحـــانا

ولا قول بعض فتيانها المجيدين:

دعـــوك بجـــار الله والله عـــالم بأنك جـار الله حـقا كـمـا وجب
لعمرى لقد فاضت وأنت مـفيضها على حـرم الله الصـنائع والقـرب
رقـبت ذمـام الله فـى كل مـؤمن وواسيتهم بالعلم طَوْرًا[1] وبالنشب
وأنت الإمـــام الزاهـد الورع الذى أبيت أغـتـرارا باللجـين وبالذهب
وإنك للـعـلامـــة الجـــامع الذى جـمعت أفـنين العلوم إلى الأدب
ومـا نصـر الإسـلام غـيـرك أهله وإنْ طـار أعلـى المنـازل والرتـب
ومن طالع الـتـفـسـيـــر أيقن أنه من الفلك الأعلى أتى ذلك اللقب
وإنك أســـتـــاذ الزمـــان وكـلهم تلامذة جاثون صـغرا على الركب
وسـمـتك إذ فـرقـت فى كل بلدة جواهر علم شيخها العجم والعرب

(١) هذا المثبت فى سائر الأصول، ويبدو أنه أنسب من رواية المطبوع وفيها: «طُرًّا».

فـما لخـوارزم التى أنت فـخـرها علتـها الثـريا إنَّ ذاك من العـجب

ولا قول ابن القرطبى:

مُنْعِـمًـا[1] بلغ تحـيـاتى إلى شـيـخنا العـلامـة الحـبـر العلم
ليـس قس عنـده قـسـا ولا سـيبـويه الشـهم يدرى مـا الكلم
أى آداب وعـلـم وتـقـى منـه فـارقت وحـلم وحـكم
قل إذا مـا الدهر أمـسى عـابسـا إنَّ مـحـمـودا لك ابن يبـتـسم
لو جـعـلت اليم حـبـرا والفـلا مـهـرقـا كـانت مـعـاليـه أطم
إن من جـراه لولا المـصطـفى كنت فـضلت على العرب العـجم
كل مـوجـود سـواه حـيث لم أر ذاك الفـضل فى عـينـى عـدم

ولا قول الخطيب الموفق:

لسـانك غـواص ولفظـك لؤلؤ وفكرك بحـر للفـضـائل طامى
لسـان يود الحـاسـدون لَوَ انه سنان قـناة أو غـرار حـسـام

ولا قوله أيضًا:

أفخر خـوارزم مالى عنك منحرف مـا دام يخـتلف الأنوار والسـدف
ألست أنت الذى خـولـتنى نعـمـا تطوى وتنشر فى تعدادها الصحف
ألست أنـت الذى أوليـتنى رتبـا بفـضل رفعـتـهـا الإيوان يعتـرف
ألست أنت الذى من ورد نعـمـتـه وورد حكمـتـه أجـنى وأغـتـرف
أعداؤك اسْتَـسْرَفونى من جهـالتهم فى وصفهـا وهى عندى فوق ما أصف

(١) هذا المثبت فى سائر الأصول وهو أنسب، والذى فى المطبوع: «قَسَما».

ولا قول أديب الملوك يعقوب بن شرين الجندى:

فتى سار فى الآفاق ركبان ذكره مغربة طورا وطورا مشرقهْ
إذا حل فى أرض أتاه فحولها تفيد علوما حوله متحلقهْ
وإنْ خاض فى شرح العلوم رأيتها لفرط احتشام من معاليه مطرقهْ
فليس له فى كل شرق ومغرب نظير بنو الدنيا على ذاك مطبقهْ

ولا قول البديع الخوارزمى:

أمكة هل تدرين ماذا تضمنت يمقدم جار الله منك الأباطح
به وإليه العلم ينمى وينتمى وفيه لأرباب العلوم المناجح
محاط رحال الفاضلين فلم يزل يحط إليه الرحال غاد ورائح
إذا انتابه صفر الوطاب رأيته تحول عنه وهو ملآن طافح
بمته الكرام الغر من خير أسرة هم قدوة الدنيا الكهول الجحاجح
أدلاء ضلال البرايا جباههم مصابيح رهبان فدتها المصابح

فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه، وجهل بالباطن المشوه.

ولعل الذى غرهم منى ما رأوا من النصح للمسلمين، وبليغ الشفقة على المستفيدين، وقطع المطامع عنهم، وإفادة المبار والصنائع عليهم، وعزة النفس والرب، بها عن الإسفاف للدنيات، والإقبال على خويصتى، والإعراض عمالا يعنينى، فجللت فى عيونهم، وغلطوا فىّ ونسبونى إلى ما لست فى قبيل ولا دبير.

وما أنا فيما أقول بهاضم لنفسى، كما قال الحسن رحمه الله فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقوله: «وليتكم ولست بخيركم» إنَّ المؤمن ليهضم

نفسه، وإنما صدقت الفاحص عنى، وعن كنه روايتى ودرايتى، ومن لقيت وأخذت عنه، وما مبلغ علمى وقصارى فضلى، وأطلعته طلع أمرى، وأفضيت إليه بخبيئة سِرِّى، وألقيت إليه عجزى وبجرى، وأعلمته نجمى وشجرى.

وأما المولد فقرية مجهولة من قرى خوارزم، تسمى زمخشر، وسمعت أبى رحمه الله يقول: اجتاز بها أعرابى فسأل عن اسمها واسم كبيرها فقيل له زمخشر والرداد. فقال: لا خير فى شر ورد، ولم يلمم بها.

ووقت الميلاد شهر الله الأصم فى عام سبع وستين وأربع مئة.

والحمد لله المحمود، والمصلى عليه محمّد ﷺ. انتهى.

* * *

قلت: وإنما أوردت ذلك مع ما فى بعضه من الغلو، وعدم التأدب مع الشرع فى بعض الألفاظ، كى تعلم فضل أهل السنة رضى الله عنهم، حيث انتصروا على من هذه صفته على زعمه، بالحجج البالغة، وكسروا أم رأسه ورأس شيعته بالحجارة الدامغة، ولم يغن عنه شىء من اعتقاد هؤلاء الغلاة فيه، ولم تنفعه ألسنتهم التى تأتى بالباطل فى صور الحق، وتستفضى مطلوبها وتستوفيه، اللهم إلاّ أنْ يكونوا غير عالمين باعتقاده، فلهم عذر عند اعتراض المعارض وانتقاده، وأيا ما كان فقد هدم أهل السنة رضى الله عنهم له ولأحزابه أساسا، وكلما حمى حوزته البدعية كليب من شيعته قيض الله له جساسا، فظهر الحق وأهله، وارتفع غى المبتدع وجهله.

* * *

ومن بديع نظم الزمخشرى المذكور قوله:

هو النَّفَسُ الصعاد عن كبد حرى ... إلى أنْ أرى أم القرى مرة أخرى
سريت بشخصى لا بنفسى وهمتى ... وهيهات ما للأخشبين وللمسرى
مقيمان عند البيت ما ذر شارق ... منيخان بالبطحاء ما ذكت الشعرى

وله من قصيدة:

مليح ولكن عند كل جفوة ... ولم أر فى الدنيا صفاء بلا كدر
ولم أنس إذ غازلته قرب روضة ... إلى جنب حوض فيه للماء منحدر
فقلت له جئنى بورد وإنما ... أردت به ورد الخدود وما شعر
فقال انتظر رجع طرف أجئ به ... فقلت له: هيهات ما لى منتظر!
فقال ولا ورد سوى الخد حاضر ... قلت له إنى قنعت بما حضر

وقوله:

إذا التصقت بالبحث فى العلم ركبتى ... بركبة نحرير على الجد دأب
فإن دام لى عون الإله على الذى ... أعانيه من فضل وبر وأداب
وإنْ نظرت عينى على الود والصفا ... مع البر والتقوى نواظر أحباب
فقل لملوك الأرض يلهوا ويلعبوا ... فذلك لهوى ما حييت وتلعابى

وقوله أيضًا:

أربعة للدين أركان ... حبهم يمن وإيمان
أربعة أول أسمائهم ... عين وهم فى الناس أعيان
عتيق والفاروق والمجتبى ... منهم ذو النورين عثمان

قال السيوطى فى الطبقات الصغرى ما نصه[1]:

محمـود بن عمر بن محمّـد بن أحمد الزمخشـرى أبو القاسم جار الله كان واسع العلم، كثـير الفضل، غاية فى الذكاء وجودة القريحـة، متفننا فى كل علم معتزليا، قويا فى مذهبه، مجاهرا به حنفيا.

ولد فى رجب سنة سبع وستين وأربع مئة، وورد بغداد غير مرة، وأخذ الأدب عن أبى الحسن علىّ بن المظـفر النيسابورى، وأبـى مضر الأصبـهانى، وسمع من أبى سعد الشقانى، وشيخ الإسلام أبى منصور الحارثى، وجماعة؛ وجاور بمكة، وتـلقب بجار الله، وفخـر خوارزم أيضًـا. وكتب إليـه الحافظ السلفى يستجيزه. وأصابه خراج فى رجله، فقطعها، وصنع عوضا عنها رجلاً من خشب، وكان إذا مشى ألقى عليها ثيابه الطوال، فيظن من يراه أنَّه أعرج.

وله من التصانيف: الكشـاف فى التفسير، الفـائق فى غريب الحديث، المفصل فى النحـو، المقامات، المسـتقصى فى الأمـثال، ربيع الأبرار، أطواق الذهب، صميم الـعربية، شرح أبيات الكتـاب، الأنموذج فى النحو، الرائض فى الفرائض، شـرح بعض مشكلات المفصل، الكلـم النوابغ، القسطاس فى العروض، الأحاجى النحوية، وغير ذلك.

مات يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمس مئة.

أسندنا حديثه فى الطبقات الكبرى وتكرر فى جمع الجوامع.

وله:

إنَّ التـفاسـيـر فى الدنيا بلا عـدد ... وليس فيـها لعـمرى مثل كـشافى

إنْ كنت تبغى الهـدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكـشاف كالشافى

(١) بغية الوعاة ج٢ ص ٢٧٠.

انتهى كلام السيوطى.

وقال ابن خلكان فيه ما نصه[1]:

محمود بن عمر بن حتى الخوارزمى الزمخشرى، أبو القاسم الإمام، له الكتب فى التفسير، والحديث، والنحو، واللغة، وعلم البيان. إمام عصره غير مدافع، تشد إليه الرحال فى فنونه، وصنف التصانيف الشريفة، منها الكشاف لم يصنف قبله مثله؛ والمفصل فى النحو، وغير ذلك. وسافر إلى مكة وأقام مجاورا زمانا فصار يقال له جار الله لذلك، وكان هذا الاسم علما عليه وكانت إحدى رجليه ساقطة، وكان يمشى فى جاون[2] خشب، وسبب سقوطها أنَّه أصابه فى بعض أسفاره ببلاد خوارزم ثلج وبرد شديد، فسقطت رجله، وكان بيده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك خوفا من أنْ يظن به أنها قطعت لريبة، وقيل إنَّه سئل عن قطع سبب رجله فقال: دعاء الوالدة، وذلك أنى فى صباى أمسكت عصفورا وربطت خيطا فى رجله فأفلت من يدى فأدركته وقد دخل فى خرق فجذبته، فانقطعت رجله فى الخيط، فتألمت والدتى لذلك وقالت قطع الله رجل الأبعد كما قطعت رجله، فلما دخلت إلى بخارى لطلب العلم، سقطت من الدابة وانكسرت الرجل وعَمِلَتْ عَلَىَّ عملا أوجب قطعها. وكان الزمخشرى معتزلى الاعتقاد، متظاهرا به، وكان إذا قصد صاحبا له واستأذن عليه فى الدخول يقول له: أبو القاسم المعتزلى بالباب.

وأول ما صنف الكشاف كتب استفتاح الخطبة: «الحمد لله الذى خلق القرآن» فقيل له: متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه فغيره وقال: «الحمد لله الذى جعل القرآن» وجعل عندهم: بمعنى خلق.

(١) وفيات الأعيان ج٥ ص ١٦٨.

(٢) هذا المثبت رواية ابن خلكان الذى ينقل عنه المصنف، وفى المطبوع: «جارن» بالراء.

ورئى فى كثير من النسخ: «الحمد لله الذى أنزل القرآن» وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف.

ومن شعره يرثى شيخه أبا مضر محمودا[1]:

وقائلة ما هذه الدرر التى تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت لها الدر الذى كان قد حشا أبو مضر أذنى تساقط من عينى

وأنشد فى كتابه الكشاف لبعضهم[2]:

يا من يرى مدينة البعوض جناحها فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها فى نحرها والمخ فى تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه فى الزمان الأول

ويروى أنَّ الزمخشرى أوصى أنْ تكتب هذه الأبيات على لوح قبره.

وقال غير ابن خلكان فى البيت الأخير:

امنن على بتوبة أمحو بها ما كان منى فى الزمان الأول

وهذا لا يناسب الكتب على لوح القبر وإنما يناسبه ما روى ابن خلكان فتأمله.

ثم قال ابن خلكان: وحدث بعض الأصحاب أنه رأى بجزيرة سواكن تربة ملكها عزيز الدولة ريحان، وعلى قبره مكتوب[3]:

يأيها الناس كان لى أمل قصر بى عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل أكنه قبل موته العمل
ما أنا وحدى نقلت حيث ترى كل إلى ما نقلت ينتقل

(١) ابن خلكان، ج٥ ص ١٧٢.
(٢) ابن خلكان، ج٥ ص ١٧٣.
(٣) ابن خلكان، ج٥ ص ١٧٣.

توفى الزمخشرى ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمس مئة.

انتهى كلام ابن خلكان.

* * *

وقد تقدم فى التأليف الذى نقلناه عن الشيخ ابن غازى رحمه الله بعض إلمام بحال الزمخشرى سامحه الله.

* * *

ومن نظم الزمخشرى قوله يمدح كتاب سيبويه رحمه الله:

ألا صلى الإله صلاة حق على عمرو بن عثمان بن قنبر

فإنَّ كتابه لم يغن عنه بنو قلم ولا أبناء منبر

بين الزمخشرى وأهل السنة

وأنشد الزمخشرى فى كشافه لبعض العدلية، يعرض بأهل السنة والجماعة المفلحين وينصر مذهبه الفاسد:

لجماعة سموا هواهم سنة وجماعة حمر لعمرى مُوكَفَهْ

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالبلكفهْ

* * *

وقد تصدى للرد عليه من أهل السنة رضى الله عنهم جم وافر، وأبدوا ما يؤيد مذهبهم الظافر، وتركوا المبتدع يحك رأسه بغير أظافر.

ولنذكر الآن ما حضرنا من ذلك كقول صاحب الانتصاف من الكشاف وهو ناصر الدين بن المنير الإسكندرانى رحمه الله تعالى:

وجماعة كفروا برؤية ربهم هذا ووعد الله ما أنْ يخلفه
وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بربهم فحسبهم سفه
وتلقبوا الناجين كلا إنهم إنْ لم يكونوا فى لظى فعلى شفه

وكقوله أيضًا أعنى أصحاب الانتصاف:

عجبا لقوم ظالمين تلقبوا بالعدل ما فيهم لعمرى معرفهْ
قد جاءهم من حيث لا يدرونه تعطيل ذات الله مع نفى الصفهْ

وكقول الشيخ الإمام أبى علىّ عمر بن محمّد خليل السكونى الأصولى رحمه الله:

سميت جهلا صدر أمة أحمد وذوى البصائر بالحمير المؤكفهْ
ورميتهم عن نبعة سويتها رمى الوليد غدا يمزق مصحفهْ
وزعمت أَنْ قد شبهوه بخلقه وتخوفوا فتستروا بالبلكفهْ
نطق الكتاب وأنت تنطق بالهوى فهو الهوى بك فى المهاوى المتلفهْ
وجب الخسار عليك فانظر منصفا فى آية الأعراف فهى المنصفهْ
أترى الكليم أتى بجهل ما أتى وأتى شيوخك ما أتوا عن معرفهْ

وقول القاضى أبى على عمر بن عبد الرفيع:

جورية وتلقبت عدلية وعن الصواب عدولها للسفسفه
نفوا الصفات وعطلوا وتمجسوا ويكابرون وشأنهم جلب السفه

هكذا وجد بخط الإمام أبى عبد الله بن مرزوق، ورأيته بخط بعض الأصحاب: وشأنهم حال السفه، والأمر فى ذلك قريب.

وقول الإمـام القاضى أبى عـبد الله محـمّد بن علىّ الأجمـى التونسى قاضى الأنكحة رحمه الله تعالى:

لهـواتف هتـفـوا وظـنوا هتـفـهم عدلا لقـد بلغوا النهاية فى السـفهْ
زعـمـوا بأن الذات قـام بغـيـرها صفـة وفيهـا أوجبوا حكم الصـفهْ
خرقـوا سياجا شـاده سلف الهدى وتمذهبـوا بمذاهب مـسـتنكـفـهْ
وأتى الأخـير الغمـر من أتباعـهم يبـغى الحجـاج معـرضا بالبلكفـه
أعنى الخـوارزمـى ذا الصلف الذى لم يتـئـد من جـهله بالمعـرفـه
بل تاه فى بيـدا الجهـالة مـعرضـا كحـمار وحش فـى مهامـه متلـفه

وقول الفـقيـه أبى زكريا يحـيى بن منصور التـونسى، قال الشـيخ ابن مرزوق رحمه الله: وفى جوابه تعريض بجواب الأجمى فوقه:

عـجـبا لحـبـر فى البـلاغـة ذائق علم الفـصـاحـة فـرده ومـؤلفـه
جـمع المعـانى والبـيـان مكشـفـا أسـرار قـرآن بأكـمل مـعـرفـه
وأضل الله الـعظيـم فـراغ عن سنن الصـواب وحاد عـنه وحرفـه
فـأحق قـدرة حـادث وأحـال رؤ ية واجب أو أنْ تكـون له صـفـه
مـا ذاك إلاّ فـعل قـهـار به قـوم ذوو رشـد وقـوم فى سـفـه
والله أسـأل رحـمـة لجـمـيـعنا ودخـولنا فـيـمن حـباه وشـرفـه
مـتـوسلين بأحـمـد خـيـر الورى صلى عليـه الله مـا نطقت شـفـه

وقوله الفقيه أبى محمّد عبد الواحد اليفرنى:

قل للذى جمع النظام وخلفه ... من بعده لك موعد لن تخلفه

أثبت عدل جماعة فى جورهم ... والجور أثبته لهم نفى الصفه

ستكون من تلك الجماعة يوم هم ... حمر لغى أو لكى موقفه

وقوله شيخ الإسلام أبى عبد الله بن عرفة رحمه الله:

لحثالة سموا هواهم معدلا ... وحثالة حمر لكى موقفه

قد شبهوه بالمحال وعطلوا ... وتستروا بالذات عن نفى الصفه

قوله: «قد شبهوه بالمحال» أى لقولهم: «عالم لا بعلم» ونفى العلم يستلزم أنْ يكون محالا. هكذا ألفى فى بعض المقيدات والله اعلم.

وقول خطيب الخطباء الرئيس الحاجب، الفقيه المحدث الرحال سيدى أبى عبد الله بن مرزوق التلمسانى رحمه الله تعالى:

وجماعة عرفت لعمرى بالسفه ... وتمسك بظلال أهل الفلسفه

عدلت عن النهج القويم فلقبت ... عدلية وعدولها عن معرفه

ضلت وقالت لن يرى رَبُّ الورى ... يوم الجزاء فألزمت نفى الصفه

هذا وكم من زلة زلت وكم ... من مذهب ذهبت به فى متلفه

وكذاك أسلمت الأمور لنفسها ... هيهات تنقذ نفسها من متلفه

كيف السبيل لصرفها عن غيها ... والعدل يمنع صرفها والمعرفه

وقال سعد الدين التفتازانى رحمه الله، عند ذكر البيتين اللذين أنشدهما

الزمخشرى مـا نصه: ولقد عورض ما أنشده وأنشـأه من الهذيان. قال الإمام المحقق محبى السنة، قامع البدعة كامل الدين المظفر ردا عليهم:

لجـمـــاعـة كـــفـروا بـرؤية ربهم ولقـائه حـمـر لعـمرى مـوكـفـه
هم عطلوه عن الصـفـات وعطلوا عنه الفـعال فـيهـا لها من منكفـه
هم نازعـوا الخلق حـتى أشـركـوا بالله زمـرة حـــاكـة وأسـاكـــفـه
هذا غلقـوا أبواب رحـمـتـه التى هى لا تزال على العـصاة مـوكفـه
ولهم قـواعـد فى الـعـقـائد رذلة ومـذاهب مـجهـولة مـستنكفـه
يبكـى كـــتـــاب الله من تأويـلهم بدمـوعـهم المنـهلة المستـوكـفـه
وكـذا أحـاديث النـبى دمـوعـهـا منهم على الخـدين غـير مكفكفـه
فـالله أمطر فى ســحـاب عـذابه وعـقـــابه أبدا عليـــهم أوكـــفـه

انتهى لكلام السعد رحمه الله.

وقال الطيبى رحمه الله: وأجابه بعض أهل السنة بقوله:

عـــبـا لقـــوم ظالميـن تستـــروا بالعـدل ما فيـهم لعمـرى معـرفه

. . . البيتـين وقد تقدم أنهما لصـاحب الانتصاف حسبـما صرح بذلك الإمام ابن مرزوق، فبان أنه المعنى بقول الطيبى: أجاب بعض أهل السنة والله أعلم.

قلت: وقد رأيت بتلمـسان بخط الفقيـه أبى عبد الله محـمّد بن الحداد الوادى آشى ثم الغرناطى نزيل تلمـسان رحمه الله، جوابا بديعـا جدا للشيخ الإمام ابن الجبير اليحصـبى، أحد أعلام المتأخرين بالأندلس، ونقلته من خطه الحسن وهو:

وجـــمـــاعـــة منشـــوءة بدعـيـــة مـصروفـة عن رشدها مـتعـسفـهْ
حـاروا وسـموا قـومـهم عـدليـة عـدلوا ولكن عـن طريق المعـرفـهْ
قـــوم نفـوا عـن ربهم أحكامـــه فى خلقـــه لما نفـوا عنه الصـــفـهْ
غطوا عـلى التـــعطيل بالتـنزيه إذ ضلوا ضـلال الأسـرة المتـفلسـفـهْ
فطريقـهـم أس الضـلال وقـولهم عـــين المحـال مـــحض السـفـــهْ
الحق جَبَّ سـنام جـــبـــائـيـــهم وقناة نجل عـبـيـدهم مـتقـصـفـهْ
وتنـاثرت خـــــرزات نـظام لـهم والكودن الـعـــلاف بل المعـلفـــهْ
والشـيخ محـمود هو الفـيل الذى كـادوا به المعنى الذى فى البلكفـهْ
مـــا منهم إلاّ حـــمـار صـــوتت فى فيـه جحـفلة ويحسبـها شـفهْ

قال وكتب بخطه الرائق تحت قوله «إلاّ حمار» ما نصه:

البادى أظلم. انتهى.

ولا خفاء ببراعة هذا النظم، وحسن مساقه وتوطئته للتورية البديعة التى هى قوله: «والشـيخ محمود» الخ فـإنَّ هذا التلميح لقصة الفـيل المذكورة فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل]، وقد صرح غـير واحد من أهل التـفسيـر والسير أن اسم ذلك الفـيل الذى جاء به أبرهة لهدم الـكعبة مـحمود، فـجبـر بذلك ابن الجبيـر ما ضـاع من الاتفاق الغريب والله تعـالى يجازيه أفـضل جزائه، وجمـيع أهل السنة بما أتوا به من الحجج التى جدعت أنف كل مستريب.

وبعد أنْ كتبت مـا ذكرته من حفظى، راجعت مقيـداتى فألفيت بها مما نقلته من خط الوادى آشى المذكور ما نصه:

أنشدنا شيخنا وبركتنا العالم الجليل، الخطيب المصقع، البليغ المفيد، إمام وقته فى العلوم، والتحصيل والفهوم، قاضى الجماعة، سيدنا أبو عبد الله، محمّد بن علىّ بن الأزرق رضى الله عنه، وأمتع ببقائه وإفادته، ووصل أسباب سعادته. قال:

أنشدنى شيخ الأدباء وحجة البلغاء الكاتب المجيد الأبرع، أبو عبد الله محمّد بن الجبير اليحصبى معارضا للبيتين الشهيرين، اللذين أنشدهما الزمخشرى فعارضهما ابن الجبير بقوله:

وجماعة مشنوءة بدعية مصروفة عن رشدها متعسفهْ

... الأبيات. قال شيخنا: ولما أنشده الأبيات ناظمها، كتبها له بخطه الحسن وكتب تحت قوله «إلاّ حمار»: البادى أظلم انتهى.

***

ثم قال الوادى آشى المذكور: ولسيدى ابن الجبير المذكور ومن خطه قيدت:

كلما رمت أنْ أقدم خيرا لمعادى ورمت أنى أتوب

صرفتنى بواعث النفس قسرا فتقاعست والذنوب ذنوب

رَبِّ قَلِّب قَلْبِى لعزمة خير بمتاب ففى يديك القلوب

وله أيضًا وقد أشار عليه الرئيس الكاتب أبو عبد الله الشران بإنشاء صدر لمكاتبات سلطانية:

ذرعى وصدرى بالصدور هذا يضيق وذا يدور

أنت الملئ بكتبها ما للصدور سوى الصدور

فأجابه الشران بقوله:

تجـر اجـتـهـــادك لن يبـور فـدع الكلام وكـن صـبـور

إنَّ الصـــــدور بـك ازدهت بالـدر تزدان الـصـــــــدور

نقلت هذا كله من خط الفقـيه أبى عبد الله محـمّد الوادى آشى المذكور آنفا رحمه الله تعالى.

* * *

ثم قال الوادى آشى:

(*)ومن نظم سيدى محمد بن الجبير - وقد أهدى له سيدى أبو القاسم السباطير - تفاحا:

خـليـل لـم يزل قـلـبى قـــــــديمـا

يميـل بفـــرط صـــاغـــيـــتى إليـــه

أتانى مـــقـــبـــلا والـبـــشـــر بيـــدى

وســـــــائل بـرة ذكـــــــرت لديـه

وجـــــاء بـعـــــرف تفـــــاح ذكى

فـــقـلت أتى الخلـيل بســـيـــبـــويه

فـــــــأهدى مـن جنـاه بكـل شكـل

يلوح جـــمـــال مـــهـــديـهـــا عليـــه

(*) من هذه العلامـة إلى مثلها فيـما يلى ساقط من المطبـوع، وهو فى مخطوط الرباط رقم ٧٨٤.

وقال يرثى السرقسطى المفتى:

بكتك رســـوم الدين يا أوحـــد العليـــا

وصـرت إلى الآخـرى فـأظلمت الدنيـا

لئن صـــــدعت فـــيـك القلوب فـطالما

صـدعت بأحكام الـشـريعـة والفـتـيـا

على السرقـسطى الرضى صوب رحـمة

تعـود على مـثـواه بالغـيث والسـقـيـا

على نعـشك انثالت نفـوس أولى النهى

فـقد زهدت فى العـيش بعدك والبـقيـا

وله رحمه الله:

يا بـنى عـــاصم البـــشـــرى لـكم

زاد فـى أولادكم نجـل نـفـــــــيـس

ذو الريـاســـــات الـذى بشـــــركم

بـالرئـيس ابـن الرئـيـس ابن الـرئيـس

وهو فـى الســـــائـر من أيـامـــــه

لأولـى الـعلـم ولـلـمـلـك جلـيـس

وقوله فى مصرية الأزرق:

مـــــصـــــرية الـســـيـــــد المعـلى

مـــا إن لـهـــا فـى الكمـــــال ثان

وإن يكـن شـــــانـهـــــا دخـــــان

فلـيس ذا صـــــفـــــار شـــــان

راقت جـــمـــالهـــا فـــعـــوذوها

مـــخـــافـــة العين بـالدخـــان(*)

ثم قال الوادى آشى المذكور:

سمـعت شيخنا الإمام سـيدى بن الأزرق الأصبحى رحـمه الله بمجلس تدريسه من الجـامع الأعظم بغرناطة يقول: كـان أبو محمّـد عوف بن يوسف الخزاعى من أهل القيروان يقول: الخلائق كلهم أعداء بنى آدم، وبنو آدم كلهم أعداء المسلمين، وجميعهم أعداء أهل السنة. انتهى.

* * *

وذكر الرشاطى بسند متصل إلى أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فى قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات] قال: هم أهل السنة والجماعة.

انتهى ما قيدته من خط الوادى آشى المذكور رحمه الله.

* * *

وكـان رحمـه الله ممن حل بتلمسـان بعـد أخذ غـرناطة أعـادها الله، وحصلت له بها مصاهرة مع أعيانها بنى مرزوق، ثم آلت إلى مقاطعة حسبما

ذكـر ذلك فى بعض مـا له من النظم، وكـان له نظم لا بأس به، فـمن ذلك قوله رحمه الله بعد بيت سقط من حـفظى مضمنه أنَّ الناس لاموه عندما طلق بنت ابن مرزوق وأظنه هكذا:

يلومنى الأقوام من بعـد مثال سطا علىّ ابـن مـرزوق ومـن بإنفـاق
فـقلـت لهم كـفـوا الملام فـإننى تركت ابن مـرزوق وأممت رزاقى

* * *

ومن ذلك قـوله يرثى الشيخ الإمـام الحافظ بل حـافظ الإسلام سـيدى أحمـد بن يحيى الونـشريشى الأصل التلمـسانى نزيل فـاس صاحب المعـيار وغيره:

لقـد أظلمت فاس بل الغـرب كله بموت الفـقيـه الونشـريشى أحمـد
رئيس ذوى الفـتـوى بغـيـر منازع وعـارف أحكام الـنوازل الاوحـد
له دربة فـيـهـا ورأى مـسـدد بإرشـاده الأعلام فـى ذاك تهتـدى
وتالله مـا فى غـربنـا اليـوم مـثله ولا من يـدانيـه بـطول تـردد
عليـه من الرحـمن أفضـل رحمـة تروح علـى مـثـواه وتغـتـدى

وقوله فى رثائه أيضًا:

أبعد ابن يحيى اليوم فى الغرب عالم يطبق بـالفـتـيـا المفـاصل مـثله
ويعـرف من فـقـه النوازل غـاية يوقـع منهـا مـا بـه بان نبـله
وإنْ جـئت للإنصاف لم يبق مـثله وهذا الجلـيل ليس يـنكر فـضله
فإذ كان جاء الموت فالصبر والرضا على مـا قـضـى فـالحـول حـوله

وقوله فى ذلك:

رأيت نجـــوم الدين تبكى حـــزينة على فقد حبـر كان قطب أولى العليا
فقـلت ومن هذا فقـالت مجـيبـبة على الونشريشى رئيس ذوى الفـتيا
فـــصـحنا وقـلنا: ويلنا ثـم ويلنا على فقده مـذ غاب أظلمت الدنيا
عليـه من الرحـمن أفضـل رحمـة تعـاهد مثـواه مع لجـود والسـقيـا

وقوله وقد بدل القافية:

رأيت نجـــوم الدين تبكى حـــزينة على فقد من قـد كان قطب زمانه
فـقلت ومن هذا فقـالت مجـيبـة على الوانـشـريشى وحـــيـد أوانه
إليـه انتـهت فى الفقـه كل رياسـة ومـعـرفـــة زينت بحـسن بـيـانه
ومـذ غـاب عنا أظلـم الكون كله وصـار الضحى ليـلا لفقـد عيـانه
وإنَّ عـــزائى فـيـــه للخلـق كلهم خـصـوصا ذوى فـقـه لعـز مكانه

* * *

وكانت وفاة الإمـام الونشريشى المذكور، يوم الثلاثاء مـوفى عشرين من صفـر من عام أربعة عشـر وتسع مئة، بمدينة فاس، رحـمه الله، ونجب ولده شيخ شيخنا القاضى سيدى عبد الواحد رحمه الله.

* * *

ومن نظمه أعـنى الوادى آشى المذكور رحمـه الله يمدح الفـقيه أحـمد العبادى يقول:

ومن مـثله فى العـلم يبـدى فنونه مع الدين والتقوى على صغر السن
فـأثبـتـه المولـى وأثبت أمـره وزكى علوما حـاز فى غيـر ما فن

❊ ❊ ❊

ومن نظم الوادى آشى المذكور قوله:

تلمـسـان أرض لا تليق بحـالنا ولكن لطف الله نسـأل فى القضـا
وكيف يحب المـرء أرضا يسوسـها يهـود وفـجـار ومن لـيس يرتضى

❊ ❊ ❊

وقوله رحمه الله:

غـريـب فى تلمـسـان وحـيـد من الأحـبـاب ليـس له مـشـاكل
وكم فـيهـا من الأصحـاب ولكن عـدمت بهـا المناسب والمماثل

❊ ❊ ❊

وكان رحمه الله كثير النسخ والتقليد، آية الله فى ذلك، حتى إنى رأيت فى خزائن أهل تلمسان بخطه نحو المائة سفر، ورأيت بفاس نحو الثمانية[1]. وأخبرنى مـولانا شيخ الإسلام عمنا مفتى تلمـسان، سيدى سعيـد بن أحمد المقرى رحـمه الله، أنَّه نسخ بخطه نحو العـشرين نسخـة من توضيح خليل، وكان يحترف بالنسخ رحمـه الله، ونظمه نظم فقيه، وربما يقع له النادر ولولا الإطالة لجلبت أشياء من ذلك زيادة على ما سبق.

❊ ❊ ❊

(١) هذا الصواب من بعـض الأصول الخطية، والذى فى المطبـوع: «ثمانمائة» والمثـبت هو ما يقتـضيه السيـاق أيضًا لأن ابن الأزرق لم تطل إقامتـه بفاس حتى ينتسخ مـثل هذا العدد الهائل من المخطوطات.

ورأيت بخطه رحمه الله ما نصه:

ولسيدى محمّد العربى أبقاه الله عند محاصرة النصارى للحضرة:

بالطبل فى كل يوم وبالنقير نراع
وليس من بعد هذا وذاك إلاّ القراع
يا رب جبرك يرجو من هيض منه الذراع
لا تسلبنى صبرا به لقلبى ادراع

***

وله أيضًا وقد ظفر ببعض المرتدين، ممن صار والعياذ بالله غبيا يجره الناس بالحضرة حيا:

أَلاَ رُبَّ مغور تنصر ضلة فحاق به شؤم الضلال وشره
فإنَّ يرتفع عند النصارى بالاعتنا فكم عندنا من حرف حبل يجره

***

وله أيضًا:

صور إن كنت نبيلا صورة دام فى تصويرها البحث وطالا
زوجة إنْ دخلت بيتا فقد حرمت من بعد ما كانت حلالا

جوابه:

هى أَن تلتبس[1] زوج امرئ بنسا بيت قد أعجزن الرجالا
حيث قد أنكرن طرا عصمة منه قد ضمن دعواها المقالا

(١) هذا الصواب ما يقتضيه المعنى والوزن، والذى فى المطبوع: «هى إن لم تلبس» وهو ما يرفضه الوزن والمعنى جميعًا.

وله أيضًا ملغزا:

ما رجل يعجب من أمره من لم يحقق نفسه أمره

حللت له وحرمت زوجة فى اليوم ثنتى عشرة مره

انتهى.

* * *

قلت: وهذا أبو عبد الله المذكور، هو صاحب الكتاب الذى بعث به سلطان الأندلس أبو عبد الله المخلوع آخر ملوك الأندلس إلى السلطان الشيخ الوطاسى، صاحب فاس، وقد تقدم ذكره فى أول هذا الموضوع فراجعه إنْ شئت.

وقد حلاه الوادى آشى بقوله:

«بليغ العصر بل الدنيا، ومالك زمامى النظم والنثر بلا ثنيا، سيدى محمّد العربى، أنسأ الله أجله وبلغه الله أمله». انتهى.

* * *

ورأيت بخط الوادى آشى المذكور ما نصه:

من الوثائق المجموعة: إنْ ذكر الموصى فى تابه أنْ تنفذ وصيته من سكة كانت تجرى فى حين الوصية، ثم توفى الموصى وقد انقطعت تلك السكة، فإن وصيته إنما تنفذ من تلك السكة التى كانت تجرى يوم الوصية، إلاّ أنْ يكون نص فى وصيته أنْ تكون وصيته من النقد الجارى يوم تنفذ الوصية، فيكون ما عهد فإن وقعت وصيته مطلقة ولم يشترط صفة، فإنما يكون ذلك مما يجرى يوم التنفيذ، وذلك بخلاف الكوالئ والديون. انتهى.

(١) الكوالئ: المتأخر من الصداق.

قال محـمّد الوادى آشى قوله: «إنما تخرج مما يجـرى يوم التنفيذ إنْ لم يشترط الصفة» والذى فى الكافى لأبى عـمر خلافه، وعلى ما فى الكافى فى ذلك العمل، وبه شـاهدت شيخنا المواق يفتى، وشـيخنا قاضى الجمـاعة ابن منظور رحمه الله يحكم. انتهى.

* * *

ورأيت بخطه رحمه الله ما نصه: وجد بخط الرئيس القاضى أبى يحيى ابن عاصم رحمه الله تعالى:

الحمد لله.

إنما تستقل العـقود الصحيحـة، وتتم الموجبات الصريحة، بثـبوتها لدى الحاكم، المنعقد ولايته عند تحصيل شروطها صحة وكمالا، وذلك بأداء نصاب شهادتها العادلة استتمامًا واستكمالاً، فإذا كان أحد شهدائها السلطان الأعظم، أو من أقامـه السلطان مقامـه، وهو قيوم الشـريعة الذى ارتضاه الإمـام لإنفاذ أحكامها عوضًـا منه وأقامه؛ فإنَّ العمل الجارى بهـذه الحضرة عند أهل كتب الأحكام، وهو اللازم اقتفاؤه، إذا أريد ثبوت العقد فيه هذه الشهادة واكتفاؤه؛ أنْ يُشْهِد القـاضى الذى به نصاب هذه الشهادة عليها اثنين من شـهداء العدالة أنها شـهادته، ثم يؤدى عنده هذان الـعدلان، ويخاطب هذا الرسـم على ما مرت به شهادته، ويُعْلِم للشهادة من شهـد معه أداء وقبولاً، خطابًا عند غيره من القضـاة مقـبولاً، فإذا كـان الفقه هـكذا مقررًا، والعـمل على هذه السنة محـررًا؛ فمن أشهده الآن قـاضى الجماعـة بحضرة غرناطة فـلان بن فلان، الأول من شهـيدى الرسم فـوقه، على أنْ الشـهادة الموضـوعة فـيه أولاً هى

شهادته التى بهـا أشهد، وأنها مكتوبة بخط يده الذى منه تعـود، وأنَّه تحملها مسئولة منه تحقيقا، ويؤدى عليها مطلقًا إيجابًا لها وتصديقًا فى كذا.

* * *

قال الوادى آشى ومن خطه أيضًا:

الحمد لله.

القول الظاهر الأدلة، الدارج على ارتكاب القضاة الأجلة؛ الجارى لدينا به العمل فيما تقبل به العقـود المستقلة، قبول خطاب الحكم العدل مطلقًا وإنْ عزل أو توفى، وخط القاضى المعلوم العدالة إذا ثبت أنَّه خطه يكفى. والقول الآخـر هو الذى رجـحه غـيـر واحد، وأكـثـروا على صـحتـه من الحـجج والشواهد. وللخروج من الخـلاف وصون موعده من الاختـلاف؛ أشهد الآن قاضى الجمـاعة، وقيوم أحكامهـا المطاعة، فلان بن فلان وصل الله توفـيقه، وكافـأ تثبته فـى النظر وتحقيقـه، بثبوت الرسم فـوقه لديه، واستـقلاله عنده الاستقلال الكافى المعتمد عليه، لثـبوت الرسم فوقه، لصحة الشهادة الأولى، ولإعلامـه المعرب عن صحـة ثانية الشاهدتين هنالك أداء وقـبولاً، فمـا كان كذلك لمن يرد عليـه من القضاة أنْ يقـبله على ثانى القولين اتفـاقًا، هو الذى أشهد به الآن برهانًا لما ثبت لديه من ذلك ومصداقًا؛ تسـجيلاً بإشهاده لصحة عـقده، وذخـيرة لليـوم ومـا يأتى من بعده، وعـمـدة تقى الحكم على أمل الاحتمالين وأولاهما من إجازته أو رده؛ شهـد على قاضى الجماعة المسمى بما فيـه عنه من ثبوت وتـسجيل، وقـبول وتعـديل؛ وهو فى مجلس أحـكامه، ومظهر نقضه وإبرامه؛ فى كذا. انتهى.

قال محمّد الوادى آشى رحمه الله:

هذه المسألة فوق هذا تليه، قد صنف فيها الشيخ الفقيه القاضى الجليل سيدى الحاج أحمد بن عبد الجليل اللخمى - ممن أدركناه بغرناطة مدرسًا ونائبًا عن قاضى الجماعة بها، وأدينا مرارًا شهادات، وحضرنا جنازته رحمه الله - تصنيفًا مفيدا، لخص فيه المسألة واستظهر بالنقول، ولم يبق لأحد ما يقول.

* * *

وأما من كان شاهدا فى رسم ثم صادف أنْ صار قاضيًا، وطولب بخطابه، فقد نزلت بى هذه بالمنكب، وأنا أنوب بها لضرورة بعض أيام، لمنيب قاضيها إذ ذاك بالحضرة، أواخر شعبان وأوائل رمضان عام سبعة وتسعين وثمان مئة، فصنعت طريقة مختصرة، كنت تلقيتها من شيخنا ابن منظور وأخبرنى أنها طريقة شيخه البدوى:

أشهدت عدلين على شهادتى، وأديا لدى بذلك فقبلتهما، وشُهِد على خط الآخر لمغيبه بالحضرة، وكتبت على الغائب: عرف بها عدلان لمغيبه، وعلى شهادتى: أشهدت بها عدلين، وأديا لدى بذلك فقبلتهما، وكتبت أسفله: ثبت بواجبه، وأعلم بذلك فلان، وفقه الله تعالى على من يقف عليه.

* * *

ونقلت من خط الوادى آشى المذكور ما نصه:

وجدت بخط سيدى وشيخى الكاتب الإمام الأعرف، سيدى محمّد بن الجبير، رحمه الله تعالى وعفا عنا وعنه، ما نصه:

(١) الذى فى المطبوع: «وشهدا» وبهامشه: «فى الأصول: «وشهد» قلت: ما فى الأصول هو الصواب.

دعاء مبارك لتفريج الأزمات

اللهم إنى تبرأت من حولى وقوتى، واستوثقت بحولك وقوتك، أرنى عجائب لطفك، وغرائب حكمتك وقدرتك، وأتنى بفرج من عندك، كما فرجت على يوسف الصديق نبيك، يا أرحم الراحمين.

هذا الدعاء إنْ ذكره أسير أو مسجون أو مكروب تسعين ألف مرة، يقول آخر كل ألف: يا لطيف يا لطيف يا لطيف، بعد البسملة، عاجله الفرج فى الحين، ونفس الله سبحانه عنه، انتهى.

* * *

ومن خطه أيضًا رحمه الله ما نصه: من كلام بعض العلماء، وينسب إلى الأستاذ أبى سعيد بن لب، رحمه الله:

قد يأمر بما لا يريد فلا يكون، وقد ينهى عما أراد فيكون، كلف العباد وأراد منهم ما علم أنهم به عاملون، كلف بما شرع، وجعل له عاقبة، وأراد ما وقع، وقطع الارتباط بين المشروع والواقع، فلا يقتضى أحدهما الآخر. انتهى.

* * *

ومن خطه أيضًا ما نصه: ومن شرح خليل لسيدى أبى القاسم بن سراج: يحتاج إذا بيع الفدان وفيه زرع لم ينبت، أنْ يقول عاقد الوثيقة: «وفى الأرض زرع لم ينبت، فهو للمشترى بالعقد على مقتضى الشرع» لأنه إنْ لم يذكر هذا فقد يتنازع المتبايعان بعد ذلك: هل كان الزرع قد نبت أو لم ينبت، فيؤدى إلى اختلاف المتبايعين، انتهى.

* * *

ومن خطه أيضًا: وفى شرح عقيدة النسفى للتفتازانى ما نصه:

وفى فتاوى قاضى خان: أجمعوا على أنه إذا ارتشى - يعنى القاضى - لا ينفذ قضاؤه فيما ارتشى، وأنَّه إذا أخذ القاضى القضاء بالرشوة لا يصير قاضيًا ولو قضى لا ينفذ قضاؤه، انتهى.

***

ومن خطه أيضًا رحمه الله: ولبعضهم وكان شيخنا ابن منظور يستحسنهما غاية، هذان البيتان:

لما أسر الماء فى أذن الحصى وقف النسيم ليسمع الأخبارا

فوشى به غرد فخاف فضيحة فبكى الغمام فأضحك الأنهارا

***

ومن خطه أيضًا رحمه الله: حدثنى الفقيه العدل سيدى حسن بن القائد الزعيم الأفضل، سيدى إبراهيم العراف، أنَّه حضر مرة لإنزال الطلسم المعروف بفروج الرواح، من العلية بالقصبة القديمة من غرناطة بسبب البناء والإصلاح؛ وأنَّه عاينه من سبعة معادن، مكتوبًا فيه:

إيوان غرناطة الغراء معتبر طلسمه بولاة الحال دوار

وفارس روحه ريح تدبره من الجماد ولكن فيه أسرار

فسوف يبقى قليلاً ثم تطرقه دهماء يخرب منها الملك والدار

ومن خطه أيضًا رحمه الله: أنشدنا شيخنا القاضى ابن منظور بمجلس إقرائه قائلاً: إن فقيهًا من رندة كان كثيرًا ما يتمثل بهذين البيتين:

أرى الكساد فى صنعة الكتبهْ ما إنْ يباع بها شقص ولا عتبهْ

تبًّا لصنعة قومٍ رأس مالهم حبر تبدده فى صفحةٍ قصبهْ

***

ومن خطه أيضًا رحمه الله ما نصه: ألفيت بخط شيخ شيوخنا قاضى الجماعة، الحافظ أبى القاسم بن سراج، رحمه الله، ما نصه:

تنبيه

جاءت الرواية فى العتبية فيمن اشترى ثمرة على ألا يقوم بالجائحة: أنَّ البيع صحيح والشرط باطل. فلما نزل ما أرى الله به من مجىء النصارى إلى فحص غرناطة، وأفسدوا الزرع، غرم المكترون الكراء، لأن الجيش ليس من الجوائح التى تحط من الكراء، فامتنع الناس بعد ذلك من اكتراء الأرض خوفًا من مجىء النصارى، وأدى ذلك إلى خسارة على الأحباس، فرأيت أنْ تكرى الأرض، بشرط أنَّه إنْ جاء النصارى وأفسدوا، أنْ يحط الكراء. فاعتمدت فى صحة العقد على قياس العكس، وهو أنَّه لا تفسخ المعاملة بشرط القيام بالجائحة، فيما لا يشرع فيه القيام بالجائحة، ويبقى النظر فى الوفاء بالشرط فى مسألة الكراء، لما فى ذلك من عموم المصلحة. انتهى.

***

ومن خط الوادى آشى المذكور أيضًا ما نصه: قال محمّد بن الحداد الوادى آشى، رحمه الله: وقعت مسألة وهى: رجل رهن بيد آخر دارًا له، وحوزه إياها، وشرط المرتهن المنفعة لنفسه، ثم إنَّ الراهن دخل الدار وسكنها، وعادت بيده، واتصل الأمر كذلك إلى تمام الأمد، وحلول الدين،

فطلب المرتهن الراهن بكراء المثل، فظهر لى بقصورى وتقصيرى، وجهلى المركب وعدم مقدورى، أنَّه لا كراء له، بدليل ظاهر الأقوال والروايات، ومنها ما حكاه فى المقرب عن ابن القاسم ونصه: ومن ارتهن دار ثم أذن للراهن أنْ يسكنها، أو يكريها فقد خرجت من الرهن، وإنْ لم يسكن ولم يكر، ومنها ما هو مقرر معلوم أنَّ المرتهن إذا ترك كراء الدار ولها خطب وقدر، فمذهب ابن الماجشون أنَّه يضمن كراء مثلها، لأنه تعمد إبطالها، ما لم يكن الراهن عالمًا، فإنه لا يضمن حينئذ، لأن سكوت الراهن عن ذلك رضًا به.

وكان شيخنا وإمامنا قاضى الجماعة سيدى محمّد بن الأزرق، أبقى الله بركته، وهو الذى وقعت النازلة بين يديه؛ لا يوافق على ما ظهرلى؛ وينازع فى ذلك ويرى إلزام الكراء؛ ونسيت الآن ما كان يستدل به، ولست على تحقيق بما حكم به فيها آخر الأمر، وذلك فى عام تسعين وثمان مئة، بيد أنَّه تكلم فيها مع طلبته بمجلس درسه، وحضرت لذلك وأنا أعطلهم وأقلهم علمًا، وأسوأهم فهمًا، وأقلهم تحصيلاً ونبلاً، وهلم جرا؛ فأجبت بما قيدت هنا، مستدلاً بما نقلته، فلم يوافقنى هو ولا غيره، وفضل الله يؤتيه من يشاء، فقد قدر الله أنَّ بضاعتى فى العلم مزجاة، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلى العظيم.

انتهى ما حضرنى الآن من كلام الوادى آشى؛ ومقيداته وإفاداته وإنشاداته كثيرة جدًا.

* * *

وشيخه ابن الأزرق، المشار إليه فى كلامه: هو الإمام العلامة الخطيب الحجة، الأعرف المؤرخ، الناظم الناثر الراوية، قاضى الجماعة بحضرة غرناطة، أعادها الله دار إسلام، سيدى أبو عبد الله محمّد بن علىّ بن محمّد، الشهير بابن الأزرق الغرناطى.

قال السخاوى: لازم الأستاذ إبراهيم بن أحمد بن فتوح، مفتى غرناطة، فى النحو والأصلين والمنطق، بحيث إنَّه كان جل انتفاعه به، وحضر مجالس أبى عبد الله محمّد بن محمّد السرقسطى، العالم الزاهد مفتيها أيضًا فى الفقه، ومجالس الخطيب أبى الفرج عبد الله بن أحمد البقنى، والشهاب قاضى الجماعة أحمد بن أبى يحيى الشريف التلمسانى. انتهى.

وله تآليف عظيمة النغع وقفت عليها بتلمسان منها، شرحه الحافل على مختصر خليل، وسماه شفاء الغليل، وقد توارد مع ابن غازى على هذه التسمية، فالله أعلم بالسابق منهما إليها.

على أنى أعتقد أنَّ كل واحد منها لم يسمع بتسمية الآخر. وقد كان مولانا العم، سقى الله ثراه، يقول: لعل تسمية ابن الأزرق شفاء العليل «بالعين».

قلت: ويبعده إنى رأيت الخطبة بخط تلميذه الوادى آشى، السابق آنفًا: الغليل «بالغين»، ومثله بخط عم أبينا الفقيه العلامة، آية الله فى معرفة الأحكام، سيدى محمّد المقرى رحمه الله.

وهذا الشرح لم يؤلف على مختصر خليل مثله: إقناعًا ونقلاً وفهما، وقد رأيت منه نحو الثلاثة أسفار، ولا أدرى هل أتمه أم لا؟ وتمامه يكون فى نحو العشرين سفرًا، وقد كتبت بتلمسان خطبته فى كراسة، وقد أتى فيها

بالعجب العجاب، وهى أدل دليل على غزارة علمه، واتساعه فى الفروع والأصول، رحمه الله تعالى.

ومن جملة تآليفه: روضة الإعلام، بمنزلة العربية من علوم الإسلام؛ غاية فى بابه، سفر ضخم فيه فوائد وحكايات. وكتاب بدائع السلك، وطبائع الملك؛ كتاب بديع فى موضوعه لخص فيه مقدمة تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر، وزاد عليه زيادات كثيرة نافعة، وهو فى سفر ضخم وقد نقل عنه صاحب المعيار، أعنى عن ابن الأزرق، وأظن أنه نقل عنه فى الجامع الذى ختم به المعيار.

وقد ارتحل رحمه الله إلى تلمسان، عند غلبة العدو الكفار على هضم ما بقى بيد المسلمين من بلاد الأندلس، ثم ارتحل منها إلى المشرق ولم أقف على وقت وفاته، إلاّ أنَّه كان ارتحاله لتلمسان بعد التسعين وثمان مئة بلا شك، وغالب ظنى أنَّ ذلك فى أواخر العشرة التى كملت بها تسع مئة سنة للهجرة النبوية، والله أعلم. ولم أتحقق الآن هل دخلها، أعنى تلمسان بعد أخذ غرناطة أو قبله، وقد قدمنا أوّل هذا الموضوع وقت أخذها.

***

ومن شعره رحمه الله عند نزوله طاغية النصارى دمرهم الله بمرج غرناطة، أعادها الله للإسلام بجاه النبى عليه الصلاة والسلام:

مشوق بخيمات الأحبة مولع تذكره نجد وتغريه لعلعُ[1]

مواضعكم يا لائمين على الهوى فلم يبق للسلوان فى القلب موضعُ

(١) نفح الطيب ٢/ ٧٠٤.

ومن لى بقلب تلتظى فيه زفرة ومن لى بجفن تنهمى منه أدمعُ

رويدك فارقب للطائف موقعًا وخل الذى من شره يتوقعُ

وصبرًا فإنَّ الصبر خير تميمةٍ ويا فوز من قد كان للصبر يرجعُ

وبت واثقًا باللطف من خير راحمٍ فألطافه من لمحة العين أسرعُ

وإنْ جل خطب فانتظر فرجًا له فسوف تراه فى غدٍ عنك يرفعُ

وكن راجعًا لله فى كل حالةٍ فليس لنا إلاّ إلى الله مرجعُ

* * *

ومنه قوله عند وفاة والدته رحمها الله تعالى:

تقول لى ودموع العين واكفة ما أفظع البين والترحال يا ولدى

فقلت أين السرى قالت لرحمة من قد عز فى الملك لم يولد ولم يلدِ

* * *

ومن بارع نظمه رحمه الله قوله فى المجبنات:

ورب محبوبة تبدت كأنها الشمس فى حلاها

فاعجب لحال الأنام: من قد أحببها منهم قلاها

* * *

ومن بديع نظمه رحمه الله قصيدة مدح فيها شيخه الإمام العلامة الجليل أبا يحيى بن عاصم، وهى من غرر النظام وحر الكلام وأثبتها لغرابتها:

خضعت لمعطفه الغصون الميس ... وزنا فهام بمقلتيه النرجس[1]

ذو مبسم زهر الربا فى كسبه ... متنافس عن طيبه متنفس

ومورد من ورده أو ناره ... يتنعم القلب العميد ويبأس

فالورد فيه من دموعى يرتوى ... والنار فيه من ضلوعى تقبس

كملت محاسنه فقد ناضر ... ولواحظ نجل وثغر ألعس

صعب التعطف بالغرام حبيته ... فالحب يَحْبِى والعطف يحبس

غرس التشوق ثم أغرى الوجد بى ... فالوجد يغرى والتشوق يغرس

ما كنت أشقى لو حللت بجنةٍ ... من وصله تحيا لديها الأنفس

ألحاظه ورضابه وعذاره ... حور بها أو كوثر أو سندس

وليالى أنس قد أمنت بهن من ... واشٍ ومن رقيب يحرس

أطلعت شمس الراح فيها فاهتدى ... عاش إلينا فى الدجى ومغلس

صفراء كالعقيان فى الألوان للندمان كالشهبان منها أكؤس

صبت شقيقًا فاستحالت نرجسًا ... فى مزجها فمورد ومورس

وحبابها يقنى بأسنى جوهرٍ ... أنفى لغم المعدمين وأنفس

يجلى بها للغم منها حندسا ... قمر عليه من الذؤابة حندس

حتى إذا عمشت مراة البدر من ... صبحٍ بدا تلقاءه يتنفس

ناديته وسنى الصباح محصحص ... ينجاب عنه من الظلام معسعس

---

(١) نفح الطيب ٦/ ١٥١.

يا مـطلع الأنوار زهـرًا يجـتـنى ومـشـعشع الصـهـبـاء نارًا تلمس
بك مجلس الأنس اطمأن وبابن عا صم اطمـأن من الرياسـة مـجلس
بدر بـانوار الهـــدى مـــتطـلع غـيث بأشـتات الـندى متـبـجس
حـامى فلم نرتـع لخطب يعـتـرى ووفى فلـم نحـفل بدهر يـنحس
شـــيم مـــهـــذبة وعلـم راسخ ومكارم هـتن ومـــجـــد أقـــعس
لو كـان شخـصًـا ذكره لبـدا على أعطافـــه من كل حـــمـــد ملبس
ذاكم أبو يحـيـى به تحـمى العـلا وبه خـــلال الفـخـر طـرا تحـرس
بيت على عـمـد الفـخـار مطنب مـجد على متن السـماك مـؤسس
خيم وعرس فى حـماه فكم حوى فـيـــه المراد مـخـــيم ومـــعـــرس
إنا لنـغـــدو هيـــمـــا فـــينيـلنا ريا ويوحـــشنا النـوى فـيـــؤنس
حـتى أقـمنا والأمـــانى منهـضـا ت وابتـسـمنـا والزمـان مـعـبس
لم نـدر قـــبل يـراعـــه وبنـانه أنَّ الذوابل بـالغـــمـــائم تحـــبس
هن اليـــراع بهـــا يؤمن خـــائف ويحـاط مـذعـور ويغـنى مـفلس
مهمـا انبرت فهى السهـام يرى لها وقع لأغـراض البيـــان نقـرطس
تشـفى بمأملـه التـشكى المعـتـرى تحـــبى بمـأمنه الحـــمـــام المؤيس
فـتـقص حـين تشـق منهـا ألسن وتسـيـر حـين تـقط منهـا أرؤس
من كل وشـــاء بأســـرار الـنهى درب بإظهـــار السـرائر يهـــجس
قـد جـمع الأضداد فى حـركـاته فلذا اطـراد فـــخـــاره لا يـعكس

عطشان ذو رى يبيس مثمر غضبان ذو صفحٍ فصيح أخرس
لله من تلك اليراع جواذب للسحر منك كأنها المِغْنِيطَس
رضنا شماس القول فى أوصافها فهى التى راضت لنا ما يشمس
وإليكما حللاً تنساب نسجها مثلى يفصلها ومثلك يلبس
واهنأ بعيد باسم مبتهل وافاك يجهر بالسرور ويهمس
واحبس لواء الفجر موقوفا فإنَّ الحمد موقوف عليك محبس

* * *

وبعد أنْ كتبت هذه القصيدة[1]، حدث لى شك: هل هى من نظم القاضى أبى عبد الله بن الأزرق المذكور أو من نظم ابن الأزرق الآخر الذى جرى ذكره فى روضة الأعلام وأنشد له مما يكتب فى سيف قوله:

إنْ عمت الأفق من نقع الوغى سحب فشم بها بارقًا من لمع إيماض
وإنْ نوت حركات النصر أرض عدى فليس للفتح إلاّ فعلى الماضى

قلت: ولقد صدق رحمه الله فى كل ما وصف به قلم الرئيس أبى يحيى بن عاصم، الذى تحلت بجواهره لدولة بنى نصر نحور ومعاصم، فإنه كان آية الله فى النظم والنثر، وقد تقدم فى هذا الموضوع بعض كلامه، وهو قل من كثر؛ ولولا أنى أطلت النجعة فى هذا الباب، لأتيت بما حصل عندى من كلامه الذى يسحر الألباب؛ وقد أخذ من الفقه ومعرفة الأحكام بحظ بَذَّ فيه نظراءه، وانفرد فى عصره بطريق الأدب، فكان كل أنداده لا يدركه بل يسير وراءه، حتى قال الوادى آشى: إنَّ ابن عاصم أبا يحيى، هو ابن الخطيب

(١) نفح الطيب ج٦ ص ١٥٢.

الثانى، على أنَّ الدولة النصرنية فى زمـانه وهت منها المبانى؛ ومع ذلك فكان رحمـه الله يجبر صـدع الواقع، ثم اتسع بعده الخرق علـى الراقع؛ وقد ألممنا فيمـا سلف من هذا الكتاب بالتعـريف به، وذكرنا جملة من كلامـه، فراجع ذلك فيما تقدم.

* * *

ومن بديع نظمه رحمه الله قـوله قاصداً مخاطبة شيـخه الحافظ، قاضى الجماعة أبى القاسم بن سراج وقـد طلب منه الاجتماع به زمان فتنة، فظن أنَّه يستخبره عن سر من أسرار السلطان، فباعده معتذراً ولم يصدق الظن:

فـديتك لا تسـأل عن السر كـاتبًـا فتلقاه فى حال من الرشد عاطل[1]

ونضـطره إمـا لحـالة خـائن أمـانـتـه أو خـائـض فى الأباطل

فلا فـرق عندى بين قـاض وكاتبٍ وشى ذا بحق أو قـضى ذا بباطل

* * *

عود إلى الرد على بيتى الزمخشرى

ولنرجع إلى مـا كنا فـيـه، من ذكـر الرد على البيـتـين اللذين أنشـد الزمخشرى، فنقول:

ومن ذلك قول الإمام ابن عاصم، حـسبما نقله عنه العبدرى رحـمهما الله:

(١) نفح الطيب ج٦ ص ١٥٠.